القيم والأخلاق
فى مجال الإنتاج

- تنبيه القرآن على الثروات الطبيعية .
- العمل وإحسانه أعظم أركان الإنتاج .
- الإنتاج فى دائرة الحلال .
- المحافظة على الموارد فريضة .
- هدف الإنتاج : تمام الكفاية للفرد .
- تحقيق الاكتفاء الذاتى للأُمَّة ووسائله .

obeikandl.com

obeikandl.com

القيم والأخلاق .. فى مجال الإنتاج

بعض الذين كتبوا فى النظام الاقتصادى فى الإسلام قالوا : إن النظام الإسلامى ينصب اهتمامه على توزيع الأموال ، وليس على إنتاجها ، فالاقتصاد الإسلامى يُركِّز على التوزيع العادل للثروة ، وليس له علاقة تُذكر بالإنتاج .

وهذا الكلام يحتاج إلى تحرير وبيان .

فإن كان المقصود بالإنتاج ما يتعلق بالوسائل والآلات والكيفيات ، فهذا الكلام على عمومه مقبول .

أما إذا تعلَّق بالأهداف والقِيَم والضوابط المتعلقة بالإنتاج ، فلا شك أن هذا المفهوم مرفوض .

ولا بد من إلقاء الضوء على هذه القضية حتى تتضح معالمها .

● ترحيب الاقتصاد الإسلامى بكل ما يُيسر حياة الإنسان :

هناك فى دراسة الاقتصاد ما يسميه بعض الاقتصاديين « مادة النظام الاقتصادى » ، ومادة كل نظام اقتصادى يُقصد بها وسائله الفنية والآلية التى يستخدمها فى الإنتاج والنقل والمبادلة ونحوها .

فقد كانت الوسائل والآلات التى يستخدمها بعض الأنظمة القديمة بدائية بسيطة ، وكانت حريصة على أن تبقى كما هى ، وتخشى كل تغير يطرأ عليها ، فإن التغيير فى نظرها شر يجب تجنبه وتلافيه .

فلما جاء عصر النهضة فى أوروبا ، تلاقت الكشوف العلمية الحديثة ، مع المغامرات الفردية الطامحة ، فكانت الثورة الصناعية ، وكان استخدام الآلات

الجبارة التى أصبحت الواحدة منها تقوم بعمل المئات بل الألوف من بنى الإنسان ، فآلة الخياطة مثلاً تصنع فى الدقيقة سبعمائة غرزة ، بينما اليد ثلاثاً وعشرين ، والمنسج الحديث يقوم فى اليوم بعمل (٢٠٠٠) ألفى نسَّاج ، ويستطيع عامل واحد أن يراقب عشرين منسجاً ، والآلة الطابعة تقوم بعمل مليون ناسخ . وهذه أرقام تُعَد الآن قديمة وما تزال الآلات تتطور وترتقى يوماً بعد يوم .

ترتب على هذه الآلات قيام المصانع الكبيرة واستخدام العمال لإدارتها والقيام عليها .

وأصبحت الأنظمة المعاصرة كلها تؤمن باستخدام هذه الوسائل والآلات الحديثة ، وتتنافس فى تحسينها وترقيتها وخفض تكاليفها ، وتتسابق فى ذلك تسابقاً جباراً ، وتُجنِّد لذلك علماءها ومخترعيها ، لا فرق فى ذلك بين الأنظمة الفردية والأنظمة الجَماعية .

وهذا العنصر من النظام الاقتصادى لا يتدخل الإسلام فيه ، بل يدعه للناس ينظمونه وفقاً لمواهبهم وعلومهم . وحسب إمكانات عصرهم وبيئتهم ، لأنه من الشئون الفنية المتطورة المتغيرة ، وفى مثل هذا ورد الحديث النبوى : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

ذلك أن الدين إنما يهتم بالمقاصد أكثر مما يهتم بالوسائل . فهو يدعو إلى الجهاد مثلاً ، ولكنه لا يحدد وسائل الجهاد : أهى السيف أم المدفع أم المنجنيق أم الصاروخ . . ويحث على التداوى ولكنه لا يحدد أدواته وكيفيته . . ويحث على الزراعة ، ولكنه لا يُقحم نفسه بتحديد وسائل الزراعة وآلاتها ، فهذا من صنع العقل البَشرى ، ومن دائرة اختصاصه .

إنَّ الدين لا يهمه أن تُحرَث الأرض بمحراث يجره ثوران ، أو بمحراث آلى يُدار بالبخار أو بالكهرباء ، ولا يهمه أن يُنسج الثوب على منوال يدوى أو آخر ميكانيكى .

كل ما يهمه هو تحقيق المصلحة للإنسان ، ودرء الضرر عنه ، وتيسير الحياة

عليه ، فإذا كان استعمال جهاز أو آلة يحقق نفعاً أكثر للناس ، لتحسين وسائل الإنتاج التى يترتب عليها تقليل ساعات العمل على العامل ، وبذله جهداً أقل ، ولتخفيض نفقات الإنتاج ، مما يؤدى إلى بيع السلعة بثمن أقل ، ويجعلها فى متناول عدد أكبر من المستهلكين ، فهذا مما يرحب به الدين ويباركه ، ما دامت السلعة نفسها تقدِّم نفعاً للإنسان ، وليست ضارة ولا محرَّمة .

نعم . . قد يلحق بعض الناس ضرر من هذا التغير ، كأن يتعطل عدد من العمال ، نتيجة لاستخدام الآلات الحديثة ، أو يتضرر أصحاب الآلات الصغيرة أو القديمة ، نتيجة لاستخدام غيرهم آلات أضخم أو أحدث ، ولكن ضرر الأُمَّة فى مجموعها يكون أكبر وأعظم لو بقى كل قديم على قِدَمه ، وقد قال الفقهاء : يُتحمل الضرر الأدنى لدفع ضرر أعلى ، ويُتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام (١) .

على أن الدولة المسلمة عليها أن تتدخل لترفع الضرر عمن أصابه ، أو تعوِّضه بقدر الإمكان تبعاً لقاعدة « الضرر يُزال » (٢) .

ومن هنا يتبين لنا أن الدين لا يعنيه من هذا الجانب الفنى الآلى إلا ما يولده من آثار فى العلاقات الإنسانية .

وإذا كان بعض الناس يظنون الأديان عامة تجفل من التقدم العلمى المادى ، والتطور الآلى ، والرُّقِّى الصناعى ، فإن الإسلام يرحب بالتقدم فى هذا الجانب كل الترحيب ، ويفسح المجال لاستخدام العلم القائم على الملاحظة والتجربة والإحصاء ، بل يبارك هذا الاتجاه ويؤيده . وقد ثبت أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحصى النفوس فى عهده ، وكذلك فعل عمر ـ رضى الله عنه ـ

---

(١) انظر : الأشباه والنظائر لابن نجيم ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل . طبعة مؤسسة الحلبى وشركاه .

(٢) ذكر الفقهاء فى قواعدهم : ان الضرر يزال بقدر الإمكان ، وأن الضرر لايزال بضرر مثله أو أكبر منه . . الخ انظر : الأشباه والنظائر المذكور القاعدة الخامسة : ٨٥ - ٩٢

حين رتَّب الناس فى الديوان ، وفرض لهم الرواتب والأعطيات حسب بلاء كل منهم وغنائه وسابقته فى الإسلام ، وحاجته وحاجة أسرته ، وبلغ من شغفه بالأساليب العملية أن قام بتجربة تطبيقية لمعرفة متوسط ما يكفى كل فرد من القوت والإدام ، فحددها بمقدار من القمح ومقدار من الزيت معلوم .

فليس فى الإسلام ما فى التوراة من التطير والتشاؤم من الإحصاء ، وعده نقمة وبلاء . وليس فى الإسلام ما فى النِحَل الأخرى من ترك الأُمور تجرى فى أعنتها ، اتكالاً على الحظ أو البخت ، أو احتجاجاً بالقضاء والقَدَر ، أو ادعاءً للتوكل على الله ، فإن الإسلام ينكر ذلك كله ، ويأمر بالسعى والعمل ، وأخذ الحذر ، واتخاذ الأسباب ، فإنها من قَدَر الله ، ولا تنافى التوكل على الله ، وشعاره فى كل ذلك : « اعقلها وتَوَكَّل » (١) .

* * *

(١) حديث رواه الترمذى عن أنس وحسَّنه ، وانظر : صحيح الجامع الصغير (١٠٦٨) .

تنبيه القرآن على الثروات الطبيعية

يُعرِّف علماء الاقتصاد الإنتاج بأنه : خلق الثروة عن طريق استغلال الإنسان لموارد البيئة ، فما هى تلك الموارد ؟ هناك الموارد الطبيعية ، وهى هبات الله فى الطبيعة التى يمكن أن تتحول إلى ثروة : هى الغلاف الغازى بعناصره المختلفة ، وهى الغلاف اليابس فى صورة التُربة وفى صخور الأرض ومعادنها ، وهى الغلاف المائى ، وهى الغطاء النباتى الطبيعى فى صوره المختلفة ، وبمعنى آخر : هى الموارد الزراعية - المناخ والتربة - ، وهى الموارد النباتية فى صورة الغابات والحشائش ، وهى الموارد البحرية سواء أكانت فى مناطق الرصيف القارى أو فى الأعماق المحيطة ، وهى فى النهاية : الموارد التعدينية فى صخور الأرض ومعادنها المختلفة ، ولعل هناك موارد أخرى لم نستطع تحويلها إلى ثروة حتى الآن ، كالموارد الشمسية أو الجاذبية مثلاً (١) .

هذا ما يقرره الاقتصاديون ، فإذا تأملنا فى القرآن الكريم وجدناه يدفعنا دفعاً إلى استغلال هذه الموارد . إنه يُنبِّه عقولنا ، ويَلفت أنظارنا بقوة إلى هذا الكون المحيط بنا بمائه وهوائه وبحاره وأنهاره ، ونباته وحيوانه وجماده ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، كل ذلك مُسخَّر لمنفعة الإنسان ، تكريماً من الله له ونعمة عليه ، فعليه أن ينتفع بما سخَّر الله له إن كان من أهل التفكر والعلم ، نقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **اللهُ الَّذى خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ به منَ الثَّمَرَات رِزْقاً لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِه ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**

---

(١) من كتاب قواعد الجغرافية الاقتصادية ص ٢٦ ، الطبعة الثانية - للدكتور نصر السيد نصر .

دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ (١) ، ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٢) ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

*** الثروة الحيوانية :**

نبَّهَ القرآن على الثروات الطبيعية - فى مختلف صورها - فى كثير من آياته وسوره .

ففى سورة كسورة النحل تنبيه على الثروة الحيوانية وما ينتج عنها من لحوم وألبان وجلود وأصواف وغيرها ، فقال تعالى : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ ﴾ (٥) ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُم وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ (٦) .

*

*** الثروة النباتية :**

وفى السورة نفسها تنبيه على الثروة النباتية بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) إبراهيم : ٣٢ - ٣٤ (٢) لقمان : ٢٠ (٣) الجاثية : ١٣
(٤) النحل : ٥ (٥) النحل : ٦٦ (٦) النحل : ٨٠
(٧) النحل : ١٠ - ١١

وفى صناعة المربات وما يتصل بها بقوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وفى أهمية النحل وما ينتج عنه يقول : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

*

*** الثروة البحرية :**

وفى السورة نفسها لفت إلى الثروة البحرية وإمكان استغلالها فى صيد الأسماك واللآلىء والانتفاع بها فى التجارة المحلية والدولية ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

*

*** الثروة المعدنية :**

ومن أبرز ما ورد فى القرآن من التنبيه على الثروة المعدنية قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (٤) ، وفى الآية دلالة على أهمية هذا المعدن الخطيرة (الحديد) فى حياة البشر فى الناحيتين : العسكرية والمدنية .

ومما له مغزى عميق أن تسمى السورة التى ذُكرت فيها هذه الآية سورة « الحديد » .

---

(١) النحل : ٦٧ (٢) النحل : ٦٨ - ٦٩

(٣) النحل : ١٤ (٤) الحديد : ٢٥

كما ذكر القرآن « القطْر » فى قصة السد العظيم الذى بناه ذو القرنين : ﴿ آتُونى زُبَرَ الْحَدِيد ، حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ ، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً * فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً ﴾ (١) .

وفى معرض الامتنان على سليمان وما سخَّر الله له من طاقات كونية ، قال تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ (٢) .

*

* الشمس والقمر :

وأكثر من ذلك كله تصريح القرآن فى غير سورة : أنه سخَّر للإنسان الشمس والقمر ، وهذا التسخير يمد حبل الأمل للإنسان ، ويشبع من طموحه فى السيطرة على الفضاء وتسخيره بأمر الله والانتفاع بالطاقة الشمسية ، والوصول إلى القمر بل الشمس وتسخيرهما لمنفعة الإنسان ، قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

* *

● الانتفاع بهذه الثروات موقوف على العلم والعمل :

وقد بيَّن القرآن أن الانتفاع بهذه الثروات المذخورة والمنشورة يتوقف على أمرين :

---

(١) الكهف : ٩٦ - ٩٧ (٢) سبأ : ١٢

(٣) إبراهيم : ٣٣ (٤) النحل : ١٢

الأول : العلم القائم على التفكر واستخدام العقل الذى ميَّز الله به الإنسان ، ونعنى بالعلم التخصصى فى شتَّى شئون المعرفة ومجالات الحياة . ولعل أوضح آية فى ذلك قوله تعالى فى سورة فاطر : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** ﴾ ، ولعل فى ذلك إشارة إلى العلوم الفلكية وصلة السماء بالأرض ثم قال : ﴿ **فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا** ﴾ إشارة إلى علم النبات وما يتعلق به ، ثم قال : ﴿ **وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ** ﴾ (١) ، وفى ذلك إشارة إلى علم الچيولوچيا ، أو علم الأرض ، وما يتصل به ، ثم قال سبحانه : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ** ﴾ ، وفيه الإشارة إلى علم البيولوچيا والحيوان بأقسامه من إنسان وحيوان وحشرات ، ثم يختم الآية بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ (٢) ، والأقرب لتركيب الآية أن المراد بالعلماء هنا هم العلماء بالكون وآياته ودقائقه وأسراره ، لا علماء الدين فحسب ، كما هو المدلول العُرْفى للكلمة عند جمهور المسلمين . وفى مثل هذا جاء قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾ (٣) ، فالعالمون هم العلماء بالكون والإنسان .

وليس المراد من العلم حشد الذاكرة ببعض النظريات والمعلومات ، ولكنه الفهم والهضم والتمثّل الواعى ، ولهذا يذكر القرآن العقل والتفكر فى معرض الامتنان بهذه النعم والثروات : ﴿ **إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (٤) ، ﴿ **لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (٥) .

---

(١) فاطر : ٢٧ (٢) فاطر : ٢٨ (٣) الروم : ٢٢
(٤) الرعد : ٤ (٥) الرعد : ٣

وفقهاء المسلمين يقررون أن كل علم تحتاج إليه الأُمَّة فى دينها أو دنياها ، فإن تعلمه وإتقانه فرض كفاية ، بحيث إذا قام به عدد يكفى حاجاتها ، ويسد ثغراتها ، فقد أدَّت ما عليها ، وسقط الإثم عن الجميع ، وإن لم يقم أحد ، إذ لم يقم عدد يكفى ، فإن الأُمَّة جميعها تبوء بالإثم ، وإن تفاوت نصيب كل منها ، فنصيب أُولى الأمر من الإثم أكبر من نصيب العامة ، ونصيب أهل العلم أكبر من الأُمِّيين . . . وهكذا .

* *

● **العمل واجب وحق :**

والأمر الثانى هو : العمل .

فالعلم لا يؤتى أُكله ما لم يتبعه عمل ، بل عمل دائب متواصل فى مناكب الأرض لاستخراج خباياها ، والانتفاع بثرواتها ، والأكل من رزق الله فيها . قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ من رِّزْقِه** ﴾ (١) ، ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُواْ فِى الأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللهِ** ﴾ (٢) .

والله تعالى منذ خلق الأرض ﴿ **بَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا** ﴾ (٣) ، ووضع فيها كل ما يفتقر إليه الإنسان ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ (٤) ، فلن تضيق الأرض بسكانها ، وقد تكفل الخالق برزقهم فيها ، كما قال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا** ﴾ (٥) ، غير أن هذا الرزق مرهون بالسعى والعمل كما ذكرت الآيات ، فمن مشى فى مناكب الأرض ، وانتشر فيها ، وابتغى من فضل الله ، كان جديراً أن يأكل من رزق الله ، ومَن

---

(١) الملك : ١٥
(٢) الجمعة : ١٠
(٣) من سورة فصلت : ١٠
(٤) الأعراف : ١٠
(٥) هود : ٦

قعد عن العمل والسعى - فرداً كان أو أُمَّة - كان حرياً أن يصيبه الحرمان ، وليس فى سُنَّة الله أن يستوى القاعد والعامل ، وقد قال تعالى : ﴿ **إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴾ (١) ، ﴿ **إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ (٢) ، ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ** ﴾ (٣) ، ﴿ **وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ (٤) . وسُنَّة الله فى الدنيا والآخرة واحدة .

ومن هنا يجب أن نعلم أن العمل فى الإسلام واجب على كل قادر - كما أنه حق له - فلا يحل لمسلم أن يقعد عن العمل والكسب باسم التفرغ للعبادة ، والتوكل على الله ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، كما لا يحل له أن يعتمد على إعانة يُمنَحها ، وهو قوى قادر على الاكتساب ، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : « لا تحل الصدقة لغَنِىّ ولا لذى مِرَّة (قوة) سَوِىّ » (٥) .

إن الإسلام ليقدس العمل الدنيوى ويعتبره حيناً ضرباً من العبادة ، وتارة جهاداً فى سبيل الله ، إذا اقترنت به النية الصالحة ، وصَحِبه الإخلاص والإتقان .

وينفى النبى ﷺ فكرة احتقار بعض الناس لبعض المهن والأعمال ، ويُعلِّم أصحابه أن الكرامة كل الكرامة فى العمل - أى عمل - وأن الهوان والضعة فى الاعتماد على معونة الناس . يقول : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى الجبل فيأتى بحزمة الحطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه » (٦) .

* * *

---

(١) الكهف : ٣٠ (٢) الأعراف : ١٧٠

(٣) الزلزلة : ٧ (٤) آل عمران : ١٣٦

(٥) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم عن ابن عمر ، وأحمد والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة (صحيح الجامع الصغير) وزيادته (٧٢٥١) .

(٦) رواه أحمد والبخارى وابن ماجه عن الزبير . صحيح الجامع الصغير (٥٠٤١).

العمل أعظم أركان الإنتاج

من المعلوم لدارس الاقتصاد الوضعى أن الإنتاج تساهم فيه ثلاثة أو أربعة عناصر ، كل واحد منها له نصيب ، يقل أو يكثر ، من العملية الإنتاجية ، وهى : الأرض (أو الطبيعة) ، ورأس المال ، والعمل ، وبعضهم أضاف : التنظيم .

وقد اختلف الباحثون فى الاقتصاد الإسلامى فيما يقره الإسلام من هذه العناصر ويعتبره ، وما يلغيه منها ويهمله ، بناء على نظرات واعتبارات مختلفة من هؤلاء الباحثين المخلصين .

والذى أراه - بعيداً عن تقسيمات الاقتصاد الرأسمالى وتعريفاته - أن هذه العناصر كلها لها دورها فى عملية الإنتاج .

ولكن العنصرين الأساسيين هما : الأرض ، والعمل .

ونعنى بالأرض : الموارد الطبيعية ، التى خلقها الله لمنفعة الإنسان ، وسخَّرها لتحقيق أهدافه ، وزوَّده بكل ما يعينه على استخدامها .

ونعنى بالعمل : كل مجهود واع يبذله الإنسان ، بدنياً أو عقلياً ، لاستغلال هذه الموارد لمنفعته ، سواء أكان العامل يعمل لنفسه أم يعمل لغيره بأجر ، أيّاً كان هذا الغير ، فرداً أو مؤسسة أو حكومة ، وسواء أكان يعمل منفرداً أم يعمل شريكاً لغيره ، شريكاً بماله أو شريكاً بجهده وخبرته .

وسواء أكان عمله فى مجال الزراعة أم الصناعة أم التجارة ، أو غيرها من الحِرَف ، عالية أم دانية ، يسيرة أم شاقة ، تدر الوفير من الدخل ، أم لا تدر إلاّ القليل ، أو الأقل من القليل .

فالإنتاج إنما هو مولود نشأ من تزاوج بين الإنسان والأرض ، لهذا قرن الله

بينهما منذ قال : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) ، ﴿ هُوَ الَّذى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الأَرْضِ ﴾ (٢) ، ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٣) .

فالأرض هى المسرح والمجال ، والإنسان هو العامل الكادح .

وما يذكره الاقتصاديون عن رأس المال والتنظيم لا يخرج عن العمل .

فالتنظيم ما هو إلا عمل : تخطيطى وإدارى وإشرافى .

ورأس المال من الآلات والمبانى إنما هو نتيجة العمل ، فهو عمل مختزن .

ولهذا نقول : إن العنصر الأهم ، والركن الأعظم فى الإنتاج هو العمل ، فهو الذى يستغل الأرض وما فيها من خيرات ومنافع ، حتى تنتج الطيبات .

● **الإنتاج منذ نزل آدم إلى الأرض :**

والإنتاج - بهذا المعنى البسيط - ليس وليد العصر الرأسمالى ، ولا ما قبله ، بل قد صحب الإنسان منذ عمر الأرض ، لأنه ضرورى لعيشه ، فآدم أبو البَشر - عليه السلام - هو أول المنتجين .

ولشرح ذلك نقول :

خلق الله آدم أبا البَشر بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته تكريماً له ، وأسكنه وزوجه الجنة ، وضمن لهما فيها حياة هانئة رخية ، ورزقاً داراً مباركاً ، يأكلان منها رغداً حيث شاءا ، بلا مشقة ولا معاناة ولا طلب ، ونهاهما أن يقربا شجرة واحدة من شجر الجنة ، وحذرهما من وسوسة الشيطان وكيده : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ٣٠ (٢) فاطر : ٣٩

(٣) هود : ٦١ (٤) طه : ١١٧ - ١١٩

فالطعام والشراب واللِّباس والمأوى مكفولة لآدم بلا تعب كما تشير الآية الكريمة ، وهى الحاجات الأساسية للإنسان .

ووسوس الشيطان لآدم وزوجه ، ودلاهما بغرور ، ونجح فى إغرائهما بالأكل من الشجرة الممنوعة ، وعصى آدم ربه ، فأهبطهما الله من الجنة إلى الأرض : ليكون لهما ولذُرِّيتهما فيها مستقر ومتاع إلى حين .

وكان فى خروج آدم من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض : تحقيق لما علمه الله وأراده ، من عمارة هذه الأرض ، وقيام هذه الحياة الإنسانية على ظهرها ، واستخلاف آدم وذُرِّيته فيها ، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً ، وليعدهم فى هذه الدار الفانية للخلود فى دار أخرى ، هى دار البقاء .

وكان على آدم وذُرِّيته أن يشقوا ويكدحوا ، فى سبيل الحصول على حاجاتهم التى كانت مُيسَّرة فى الجنة بلا عناء ولا شقاء .

ذلك أن الله خلق الإنسان على طبيعة لا ينفك معها محتاجاً إلى الطعام والشراب والكساء والمأوى والتكاثر ، ولم يجعله مخلوقاً روحانياً كالملائكة ، ولا جسداً أصم فارغاً من دفع الغريزة : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ** ﴾ (١)

فلا عجب أن يحتاج الناس جميعاً - حتى الأنبياء منهم - إلى السعى لإشباع هذا الجانب : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فى الأَسْوَاقِ** ﴾ (٢) ، ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً** ﴾ (٣) .

ولما خلق الله الإنسان على هذا النحو ، وأنزله إلى الأرض ، هيأ له من الأسباب ما يحفظ عليه كيانه ، ويحقق له رغائبه ، وزوَّده بالمواهب والقُوَى

---

(١) الأنبياء : ٨ (٢) الفرقان : ٢٠ (٣) الرعد : ٣٨

والآلات التى تلزمه فى استخراج حاجاته من هذه الأرض التى استخلفه الله عليها ، واستعمره فيها ، فقد قال للملائكة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) .

ومن هذه المواهب والقُوَى : العلم الذى ميَّز الله به آدم على الملائكة حين علَّمه الأسماء كلها ، وأعدَّه بذلك للقيام بعمارة هذه الأرض ، كما أراد الله له ولذُرِّيته من بعده : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٢) ، ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ ﴾ (٣) .

أما المواد اللازمة لإشباع حاجات الإنسان الاقتصادية ، فقد يسَّر الله سبيلها ، وجعل أسبابها موفورة فى هذه الأرض ، منها ما هو مذخور فى باطنها ، ومنها ما هو مبثوث فوقها ، ومنها ما هو مُسخَّر لها من عالَم الأفلاك : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ (٤) .

ومنذ خلق الله الأرض هيأها لتكون مهبط الإنسان ومستقره ومسكنه : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ (٥) ، ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ (٦) ، ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧) ، ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٨) ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ (٩) .

* *

(١) البقرة : ٣٠ (٢) هود : ٦١ (٣) الأنعام : ١٦٥
(٤) الجاثية : ١٣ (٥) البقرة : ١٦٤ (٦) فصلت : ١٠
(٧) الأعراف : ١٠ (٨) لقمان : ٢٠ (٩) إبراهيم : ٣٣ - ٣٤

● ضمان الرزق وطلب العمل :

وقد تكفَّل الله تعالى بالرزق لكل كائن حى يدب على وجه الأرض ، فقال : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ (١) .

وجعل الله تعالى الإنعام بالطيبات من مظاهر ربوبيته سبحانه فقال : ﴿ اللهُ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) ، كما جعله من مظاهر تكريمه تعالى للإنسان فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٣) .

ولكن اقتضت سُنَّة الله تعالى وحكمته فى خلقه ألا ينال رزقه المضمون إلا بسعى وعمل ، ومَشْىٌ فى مناكب الأرض العريضة وابتغاء فضل الله فيها : ﴿ هُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٤) . . رتَّب الله الأكل من رزقه على المشى فى أرضه ، فمن مشى وسعى كان أهلاً لأن يأكل من رزق ربه ، ومن تقاعد وتبطَّل كان جديراً أن يحرم : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ (٥) .

* *

● العمل أو النشاط الاقتصادى عبادة وجهاد :

من أجل ذلك يحث الإسلام على الإنتاج وممارسة النشاط الاقتصادى بكل صوره ، ومختلف طرقه ، من زراعة ورعى وصيد وصناعة وتجارة واحتراف

---

(١) هود : ٦ (٢) غافر : ٦٤ (٣) الإسراء : ٧٠

(٤) الملك : ١٥ (٥) الأحقاف : ١٩

بشتَّى أنواع الحِرَف ، وكل عمل يؤدى إلى إنتاج سلعة أو خدمة تنفع الناس أو تُجمِّل حياتهم ، وتجعلها أكثر بهجة وجمالاً ، بل يبارك الإسلام هذا العمل الدنيوى ، ويُضفى عليه قدسية العبادة لله والجهاد فى سبيله ، إذا صحَّت فيه النية ، والتُزِمت حدود الله ، ولم يَشغَل عن ذكره تعالى ولقائه وحسابه ، لأن هذا النشاط والسعى هو الذى يُمكِّن المجتمع من أداء رسالته ، وتبليغ دعوته ، وحماية نفسه ، ويعينه على تحقيق أهدافه الكبرى ، كما أنه يُمكِّن الفرد من إعفاف نفسه ، وإغناء أهله ، والبر بأقاربه ، ومعونة ذوى الحاجة من قومه ، والإسهام فى مصالح أُمَّته ، والإنفاق فى سبيل دينه وإعلاء كلمته ، وهذه كلها فضائل يزكيها الدين ، ولا سبيل إليها إلا بالمال ، ولا سبيل إلى المال إلا بالكسب والسعى ، فلا عجب أن تجىء نصوص الدين داعية إلى هذا السعى حتى إنها لتجعله صلاة أو صدقة أو جهاداً فى سبيل الله .

وهذا ما فقهه سَلَف هذه الأُمَّة وخير قرونها ، فعمرت بهم الأرض ، وازدهرت بهم الحياة ، وقامت على أيديهم حضارة ربَّانية إنسانية ، جمعت بين العلم والإيمان وربطت بين الدنيا والآخرة ، ووقفت بين الرُقى المادى والسمو الروحى والأخلاقى .

مرَّ عمر بقوم فقال : ما أنتم ؟ قالوا : متوكلون ، قال : بل أنتم متأكلون ! إنما المتوكل من ألقى حبة فى الأرض وتوكَّل على ربه .

وأخرج البيهقى عن ابن الزبير : أشر شىء فى العالم البطالة .

قال المناوى فى شرح حديث « إنَّ الله تعالى يحب المؤمن المحترف » (١) : إن الإنسان إذا تعطَّل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه ، كان ظاهره فارغاً ، ولم يبق قلبه فارغاً ، بل يعيش الشيطان فيه ويبيض ويفرخ ، فيتوالد فيه نسله توالداً أسرع من توالد كل حيوان .

---

(١) رواه الحكيم الترمذى والبيهقى فى الشُعَب والطبرانى فى الكبير والأوسط عن ابن عمر ، وفى إسناده ، راوٍ ضعيف ، أو متروك . قال المناوى : لكن له شواهد . (فيض القدير : ٢/ ٢٩١) .

قال : وفى الحديث ذم لمن يدَّعى التصوف ، ويتعطل عن المكاسب ، ولا يكون له علم يؤخذ عنه ، ولا عمل فى الدين يقتدى به ، ومَن لم ينفع الناس بحرفة يعملها يأخذ منافعهم ، ويضيق عليهم معايشهم ، فلا فائدة فى حياته لهم ، إلا أن يكدر الماء ، ويغلى الأسعار (١) .

وكان بعض مشايخ الصوفية يقول : الصوفى الذى لا حِرْفة له كالبومة الساكنة فى الخراب ، ليس منها نفع لأحد ! ولما ظهر المصطفى - صلى الله عليه وسلم - لم يأمر أحداً من أصحابه بترك الحِرْفة .

وقال الخوّاص : الكامل مَن يسلّك الناس وهم فى حرفهم ، لأنه ما ثَمَّ سبب مشروع إلا وهو مقرِّب إلى حضرة الله تعالى ، وإنما يُبعد الناس من الحضرة الإلَهية عدم إصلاح نيتهم فى ذلك الأمر علماً أو عملاً (٢) .

إن العمل الدنيوى ليس مهماً لمعيشة الإنسان الفردية فقط ، بل لمصلحة الجماعة كلها ، وانتظام الحياة الإنسانية ، فلا ينبغى أن يعيش الإنسان فى الدنيا آخذاً ، دون أن يعطيها من نفسه وجهده شيئاً ، وسيأتى مزيد بيان لذلك .

إن المسلم مطالَب بعمله لمعاشه ، كما أنه مطالَب بعمله لمعاده ، وهو يسأل ربه أن يؤتيه حسنة الدنيا وحسنة الآخرة ، وعمله لمعاشه ضرورة دنيوية ، كما أنه - من وجه آخر - عبادة دينية .

* *

---

(١) هذه الفقرة نقلها العلامة المناوى بتصرف من كلام الإمام الراغب فى كتابه «الذريعة إلى مكارم الشريعة » انظر ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ، طبع دار الصحوة ، ودار الوفاء بمصر . وسننقلها بعد ذلك بتمامها فى (العمل للمجتمع) .

(٢) فيض القدير للمناوى : ٢/ ٢٩٠ ، ٢٩١

● العمل مطلوب لإغناء النفس :

إن عمل المسلم مطلوب شرعاً ، لأكثر من اعتبار ، ولأكثر من سبب .

على المسلم أن يعمل لنفسه **أولاً** ، ليقوتها ، ويغنيها بالحلال ، ويعف نفسه من ذل السؤال ، ويحفظ ماء وجهه فلا يُراق، ويُنزِّه يده أن تظل هى السفلى.

ولهذا حرَّم الإسلام السؤال من غير حاجة ، وفى الحديث : « إنَّ المسألة لا تصلح إلا لثلاثة : لذى فقر مدقع ، وذى غرم مفظع ، وذى دم موجع » (١) .

والغرم المفظع : الدَّيْن الثقيل ، والدم الموجع : الدية المرهقة .

« إن المسألة (أى سؤال الناس) كَدٌّ يكُدُّ بها الرجل وجهه ، إلا أن يسأل الرجل سلطاناً ، أو فى أمر لا بد منه » (٢) ، فلم يجز إلا سؤال ولى الأمر المسؤول عن الناس ، أو فى الأمر الضرورى الذى لا حيلة فيه .

« لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى ، وليس فى وجهه مُزْعة لحم » (٣) أى قطعة لحم .

وهذا يدلنا على أن الأصل فى السؤال المنع والحُرْمة (٤) ، إلا ما لا بد منه ، وأن على المسلم أن يكفى نفسه بنفسه ، عن طريق العمل والكسب الشريف ، وإن كان شاقاً ، وقليل المدخول ، لكنه خير من تكفف الناس .

وفى الحديث الصحيح : « لأن يأخذ أحدكم أحبله (جمع حبل) ثم

---

(١) رواه أبو داود عن أنس فى كتاب « الزكاة » (١٦٤١) ، وفى سنده : الأخضر بن عجلان ، قال عنه يحيى بن معين ، وقال أبو حاتم الرازى : يُكتب حديثه ، كما فعل المنذرى .

(٢) رواه الترمذى عن سمرة بن جندب وقال : حسن صحيح (٦٧٦) ، وأبو داود (١٦٣٩) ، والنسائى : ٥/ ١٠٠ ، وابن حبان (٨٤٢) .

(٣) متفق عليه عن ابن عمر : البخارى : ٣/ ٢٦٨ ، ومسلم (١٠٤٠) .

(٤) انظر فى هذا : كتابنا « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام » ص ٤٢ - ٤٣ ، الطبعة الخامسة . مكتبة وهبة .

يأتى الجبل ، فيأتى بحزمة من حطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه » (١) .

« لأن يغدو أحدكم ، فيحتطب على ظهره ، فيتصدَّق منه ، ويستغنى به عن الناس ، خير له من أن يسأل رجلاً ، أعطاه أو منعه ، ذلك بأن اليد العليا أفضل من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » (٢) .

❊ ❊

● العمل مطلوب للأسرة :

وأن يعمل لأسرته **ثانياً** ، وهذا يتناول الرجل والمرأة كل فى دائرة ما يحسنه : « فالرجل راع فى أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسؤولة عن رعيتها ، والعبد راع فى مال سيده وهو مسؤول عن رعيته . . » (٣) ، « وكفى بالمرء إثماً أن يضيّع مَن يقوت » (٤) و « إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيَّع » (٥) .

وقد ذكر القرآن عمل الفتاتين اللتين سقى لهما موسى غنمهما ، وكانتا تقومان بمهمة الرعاية لغنم الأسرة ، نظراً لشيخوخة الأب وعجزه ، كما قالتا : ﴿ **وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** ﴾ (٦) .

وعن كعب بن عجرة قال : مرَّ النبى ﷺ على رجل ، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلَده ونشاطه ، فقالوا : يا رسول الله ؛ لو كان هذا فى

---

(١) رواه البخارى عن الزبير : ٣/ ٢٦٥ ، ٤/ ٢٦٠

(٢) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة . (صحيح الجامع الصغير : ٥٠٤٦) .

(٣) متفق عليه عن ابن عمر : البخارى : ٢/ ٣١٧ ، ومسلم (١٨٢٩) .

(٤) رواه أحمد وأبو داود والحاكم والبيهقى عن عبد الله بن عمرو ، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبى ، وقال النووى فى الرياض : إسناده صحيح ، وسببه كما فى البيهقى : أن ابن عمرو كان فى بيت المقدس فأتاه مولى له ، فقال : أقيم هنا فى رمضان ؟ قال : هل تركت لأهلك ما يقوتهم ؟ قال : لا ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : . . . . فذكره (فيض القدير : ٤/ ٥٥٣) .

(٥) رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه عن أنس .

(٦) القصص : ٢٣

سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة ، فهو فى سبيل الشيطان » (١) .

* *

● العمل للمجتمع :

ولو لم يكن الإنسان فى حاجة إلى العمل ، لا هو ولا أُسرته لوفرة ثمرات الحياة لديه ، لكان عليه أن يعمل للمجتمع الذى يعيش فيه ، فإن المجتمع يعطيه ، فلا بد أن يأخذ منه ، على قدر ما عنده .

وهذا من المعانى الجميلة التى التفت إليها علماء الإسلام ، وجعلوا العمل الدنيوى - من هذه الناحية - واجباً شرعياً .

يقول الإمام الراغب تحت عنوان « وجوب التكسب » :

« التكسب فى الدنيا وإن كان معدوداً من المباحات من وجه ، إنه من الواجبات من وجه ، وذلك أنه لما لم يكن للإنسان الاستقلال بالعبادة إلا بإزالة ضروريات حياته ، فإزالتها واجبة ، لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فواجب كوجوبه .

« وإذا لم يكن له إلى إزالة ضروریاته سبيل إلا بأخذ تعب من الناس ، فلا بد إذن أن يُعوِّضهم تعباً من عمله وإلا كان ظالماً ، فمَن توسَّع فى تناول عمل غيره فى مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك ، فلا بد أن يعمل لهم عملاً بقدر ما يتناوله منهم ، وإلا كان ظالماً لهم ، سواء قصدوا إفادته أو لم يقصدوها ،

---

(١) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب وقال : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح ، انظر : كتابنا (المنتقى رقم ٩٤٤) وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الثلاثة، ورجال الكبير رجال الصحيح (المجمع : ٣٢٥) .

فمَن رضى بقليل من عملهم فلم يتناول من دنياهم إلا قليلاً ، يرضى منه بقليل من العمل ، ومَن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعاً ، فإنه لم يأتمر لله تعالى فى قوله : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ (١) ، ولم يدخل فى عموم قوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٢) ، ولهذا ذُمَّ مَن يدَّعى التصوف فيتعطل عن المكاسب ، ولم يكن له علم يؤخذ منه ، ولا عمل صالح فى الدين يُقتدى به ، فإنه يأخذ منافع الناس ، ويضيق عليه معاشهم ، ولا يرد إليهم نفعاً ، فلا طائل فى مثلهم إلا بأن يكدروا المشارع ، ويغلوا الأسعار ، ولهذا الشأن كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا نظر إلى ذى سيماء سأل عنه : أله حِرْفة ؟ فإن قيل : لا ، سقط من عينيه .

« وقد استحسن النبى ﷺ من وفد عبد القيس لما سألهم ، فقال : ما المروءة؟ فقالوا : العفة والحِرْفة .

« ومن الدلالة على قبح مَن هذا صنيعه : أن الله تعالى ذمَّ مَن يأكل مال نفسه إسرافاً وبداراً فما حال مَن يأكل مال غيره على ذلك ، ولا ينيلهم عوضاً، ولا يرد عليه بدلاً » ؟! (٣) .

وفى موضع آخر قال الراغب : « مَن تعطَّل وتبطَّل انسلخ من الإنسانية ، بل من الحيوانية ، وصار فى عداد الموتى » ! (٤) .

ومرَّ رجل على أبى الدرداء الصحابى الزاهد ، رضى الله عنه ، فوجده يغرس جوزة ، وهو فى شيخوخته وهرمه ، فقال له : أتغرس هذه الجوزة وأنت شيخ كبير ، وهى لا تثمر إلا بعد كذا وكذا عاماً ؟! فقال أبو الدرداء : وما علىَّ أن يكون لى أجرها ، ويأكل منها غيرى !!

---

(١) المائدة : ٢ (٢) التوبة : ٧١

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٨٠ ، ٣٨١ (٤) المرجع السابق ص ٣٨٢

وهذا هو فقه المسلم للحياة ، غرس له مَن قبله فأكل وانتفع ، فليغرس هو ليأكل مِن غرسِه مَن بعده ، وله الأجر على كل حال .

* *

● **العمل للحياة والأحياء عامة :**

وأكثر من ذلك أن المسلم لا يعمل لنفع المجتمع الإنسانى فحسب ، بل يعمل لنفع الأحياء كل الأحياء ، حتى الحيوان والطير ، والنبى ﷺ يقول : « فى كل كبد رطبة أجر » (١) .

ويقول : « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة » (٢) .

* *

● **العمل لعمارة الأرض :**

وفوق ذلك ، نجد أن العمل مطلوب فى الإسلام لعمارة الأرض .

فهذا مقصد من المقاصد الشرعية التى نوَّه بها الإسلام ، ونبَّه عليها القرآن ، وأشاد بها حكماء هذا الدين . ومنهم الإمام الراغب الأصفهانى الذى بيَّن أن الإنسان إنما أوجده الله لأُمور ثلاثة يختص بها هذا النوع ولولاها لما وُجِد (٣) .

أولها : عمارة الأرض ، المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ (٤) .

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة : البخارى : ٥/ ٣١ ، ٣٢ ، ١٠/ ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ومسلم (٢٢٤٤) ، (٢٢٤٥) .

(٢) متفق عليه عن أنس : رواه البخارى : ٥/ ٢ ، ومسلم (١٥٥٢) ، (١٥٥٣) .

(٣) انظر : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٩٠ ، ٩١ ، طبع دار الوفاء .

(٤) هود : ٦١

ومعنى « استعمركم » : أى طلب إليكم عمارتها ، فالسين والتاء للطلب كما هو معروف .

والثانى : عبادته تعالى المذكورة فى قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) .

والثالث : خلافته ، المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ولا ريب أن هذه الثلاثة متداخلة ، فعمارة الأرض - إن صحَّت فيها النيَّة - عبادة وامتثال لأمر الله تعالى ، وهى فى نفس الوقت قيام بحق الخلافة عن المستخلف ، الذى يريد عمارة أرضه لا خرابها ، وصلاحها لا فسادها ، فإنه لا يحب الفساد ، ولا يحب المفسدين .

* *

● العمل لذات العمل :

على أن أعجب وأروع ما جاء به الإسلام أن العمل فى ذاته مطلوب من المسلم ، مأمور بالقيام به ، ولو لم ينتفع هو بثمرته ، ولا أحد من أسرته أو مجتمعه ، بل لو لم ينتفع به أحد قط من خلق الله : إنسان أو طير أو بهيمة ، إنه يؤديه لحق الله تعالى ، وتقرباً إليه .

نجد هذا المبدأ العظيم فى الحديث الشريف الذى رواه أنس عن النبى ﷺ : « إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها » (٣) .

---

(١) الذاريات : ٥٦ (٢) الأعراف : ١٢٩

(٣) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد ، وعبد بن حميد عن أنس ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (١٤٢٤) .

ما معنى أن يغرس الإنسان الفسيلة والساعة قائمة ، والحياة مولِّية ، وليس هناك أمل فى أن يأكل أحد من ثمار هذا الغرس ، إلا أنه تكريم للعمل فى ذاته ، وإشارة إلى أنه يَتعبَّد لله بالعمل ، والعبادة ليس لها أجل تقف عنده : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (١) .

إن العمل مطلوب ، ولو لم ينتفع بثمرته أحد ، ولكنه رمز لعطاء المسلم وتواصله ، واستمراره ، فهو منتج معطاء للحياة ، حتى آخر رمق فيها ، ولا يوجد فى دين ولا مذهب ولا نظام تقديس للعمل أعظم من هذا .

* *

● إحسان العمل فريضة دينية :

ومن القِيَم المهمة فى مجال الإنتاج بعد قيمة العمل : إحسان العمل وإتقانه .

فليس المطلوب فى الإسلام مجرد أن يعمل . بل أن يعمل عملاً حسناً ، وبعبارة أخرى : أن يحسن العمل ويؤديه بإحكام وإتقان .

فهذا الإحسان فى العمل ليس نافلة أو فضلاً أو أمراً هامشياً فى نظر الإسلام ، بل هو فريضة دينية مكتوبة على المسلم .

ففى الحديث الصحيح : « إنَّ الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ولْيُرِح ذبيحته » (٢) .

وقد استعمل الحديث لفظ : « كتب » الذى يفيد الفرضية المؤكدة الموثقة وقد استعملها القرآن فى مثل قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (٣) ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى ﴾ (٤) .

---

(١) الحجر : ٩٩ (٢) رواه مسلم من حديث شداد بن أوس رقم (١٩٥٥) .
(٣) البقرة : ١٨٣ (٤) البقرة : ١٧٨

فمَن فرَّط فى إحسان العمل فقد فرَّط فى واجب دينى ، وفريضة إلَهية ، مما كتب الله على عباده المؤمنين .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » (١) ، « إن الله يحب من العامل إذا ما عمل أن يحْسن » (٢) .

بل نجد القرآن الكريم فى بعض المجالات الاقتصادية لا يكتفى بطلب « العمل الحسن » ، بل يأمر بـ « العمل الأحسن » .

وهذا ما نلحظه واضحاً فى طلب تنمية مال اليتامى ، فقد نهى القرآن العزيز عن قربانه إلا بالتى هى أحسن ، يعنى بالطريقة التى هى أحسن الطرق ، وأمثل الأساليب فى المحافظة على مال اليتيم من ناحية ، والعمل على نمائه وتكاثره من ناحية أخرى .

يقول تعالى : ﴿ **وَلا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إلا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** ﴾ (٣) ، وهذه وصية تكررت بلفظها فى القرآن فى سورتين : سورة الأنعام ، وسورة الإسراء .

* *

● أفهام خاطئة يجب أن تُصحَّح :

ولقد فهم كثير من المتدينين بعض القيم الدينية الكبيرة وصلتها بالاقتصاد فهماً مغلوطاً ، وذلك مثل قِيَم : الإيمان والتقوى والصلاح والاستقامة .

فإذا قال القرآن : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ (٤) .

---

(١) رواه البيهقى فى شُعَب الإيمان عن عائشة ، وحسَّنه فى صحيح الجامع الصغير (١٨٨٠) .

(٢) رواه البيهقى أيضاً عن كليب ، وحسَّنه فى صحيح الجامع (١٨٩١) .

(٣) الأنعام : ١٥٢ ، والإسراء : ٣٤ (٤) الأعراف : ٩٦

أو قال : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (١) .

أو قال : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٢) .

أو قال : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً ﴾ (٣) .

إذا قال القرآن ذلك فهم هؤلاء أنه مجرد إقامة الشعائر من الصلاة والصيام والتسبيح والتهليل والتكبير ، واجتناب المحرَّمات من الخمر والميسر ، وهذا لا شك جزء أساسى من الدين ، ولكنه ليس كل الدين ، ولا كل الإيمان والتقوى .

إن الله كما خلق الإنسان ليعبده : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٤) ، خلقه ليكون فى الأرض خليفة يعمرها بالعلم والعمل : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٥) ، ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٦) ، ومعنى « استعمركم » أى طلب إليكم أن تعمروها ، بل هذه العمارة نوع من العبادة .

إن الإيمان والتقوى والصلاح والاستقامة توجب علينا أن نوازن بين ديننا ودنيانا ، وأن نتعبد الله بمراعاة سُننه الكونية ، وأن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة ، وأن نغرس ونزرع ونصنع ، ونقوم بكل علم أو صناعة تحتاج إليها الأُمَّة فى دينها أو دنياها ، وهو ما اعتبره فقهاء المسلمين فرض كفاية تأثم الأُمَّة كلها بالتفريط فيه .

إنَّ التقوى المنشودة ليست مسبحة درويش ، ولا عمامة متمشيخ ، ولا زاوية

---

(١) الطلاق : ٢ - ٣ (٢) الأنبياء : ١٠٥ (٣) الجن : ١٦
(٤) الذاريات : ٥٦ (٥) البقرة : ٣٠ (٦) هود : ٦١

متعبد ، إنها علم وعمل ، ودين ودنيا ، وروح ومادة ، وتخطيط وتنظيم ، وتنمية وإنتاج ، وإتقان وإحسان .

إنَّ النبى ﷺ حثَّ على إتقان أى عمل يمارسه المسلم ، ولو كان قتل وزغة ففى الحديث : « مَن قتل وزغة فى أول ضربة كُتب له مئة حسنة ، ومَن قتلها فى الضربة الثانية فله كذا وكذا حسنة (أى أقل من الأول) ، ومَن قتلها فى الضربة الثالثة فله كذا وكذا حسنة » (١) ، أى أقل من الثانى . ومعنى هذا : أن الإتقان مطلوب فى أى عمل ولو كان تافهاً فى نظر الناس .

إن الصحابة رضى الله عنهم لم يفهموا الدين على أنه رهبانية أو دروشة ، ولم يفهموا الإيمان والتقوى على أنها انقطاع عن الحياة ، أو انشغال عن تنميتها بالتفرغ للشعائر .

إن عبد الرحمن بن عوف حين قابل إيثار أخيه فى الإسلام سعد بن الربيع بالتعفف الكريم وقال قولته : « إنما أنا امرؤ تاجر ، فدلُّونى على السوق » ، وتاجرَ وربحَ الملايين ، لم يخرج عن دائرة الإيمان والتقوى ، ولم يبعد عن زمرة المتقين ، بل كان من العشرة المبشَّرين بالجنة ، الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وكان من الستة أصحاب الشورى .

إن المؤمنين المتقين هم الذين يأخذون بالأسباب ، ويجتهدون أن يكونوا دائماً « أحسن عملاً » ، مسلَّحين بالتوكل على الله ، معتصمين بمكارم الأخلاق ، ولهذا يبارك الله جهودهم فى الدنيا ، ولا يضيع أجرهم فى الآخرة (٢) .

ولقد يُخيَّل إلى بعض الناس أن ما وعد الله به أهل الإيمان والاستقامة والتوبة والتقوى من بركات وثمرات ، ورزق دار ، وغيث مدرار ، هو من باب الخوارق والكرامات ، يكرم الله بها مَن شاء من عباده المتقين .

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٦٤٦٠) .

(٢) من كتابنا « أولويات الحركة الإسلامية » ص ٦٠ - ٦٢ ، طبع الرسالة .

ولكن الذى أراه : أن ما وعد الله به إنما هو ثمرة إيمانهم واستقامتهم ، فجزاؤهم من جنس عملهم ، وهو ماض على سنن الله فى كونه .

ولقد بيَّنتُ ذلك من قديم ، حين كتبت عن « الإيمان والحياة » ، وبيَّنتُ أثر الإيمان فى الإنتاج ، بما يقطع لسان كل أفاك أثيم يزعم أن الدين مخدِّر للشعوب ، أو معوِّق للجماعات عن التنمية والنهوض .

* *

● المؤمن يخشى الله فى عمله فيتقنه :

فمن لوازم الإيمان : أن المؤمن لا يكتفى بالاندفاع الذاتى إلى العمل ، بل يهمه أن يُجَوِّده ، ويتقنه ويبذل جهده لإحسانه وإحكامه ، لشعوره العميق ، واعتقاده الجازم أن الله يراقبه فى عمله ، ويراه فى مصنعه أو فى مزرعته ، أو فى أى حال من أحواله ، وأنه تعالى « كتب الإحسان على كل شىء » (١) . . وقد فسَّر نبى الإسلام هذا الإحسان فى جانب العبادة ، فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٢) .

وهذا هو شعور المؤمن فى كل عمل من الأعمال - لا فى العبادة وحدها - أن يؤدى العمل كأنه يرى الله ، فإن لم يبلغ هذه المرتبة فأقل ما عليه أن يشعر أن الله يراه ، وشعار المؤمن دائماً فى أدائه لعمله : إنِّى أُرضى ربى .

وربه لا يرضيه منه إلا أن يقوم بعمله فى صورة كاملة متقنة ، وهذا ما علَّمه نبى الإسلام للمؤمنين : « إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » (٣) - عملاً - أى عمل من أعمال الدنيا أو أعمال الآخرة .

وهناك خُلُقان أصيلان يتوقف عليهما جودة العمل ، وحسن الإنتاج ، وهما :

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ، وقد تقدَّم . (٢) جزء من حديث جبريل المشهور .
(٣) رواه البيهقى فى « شُعَب الإيمان » ، وقد تقدَّم .

الأمانة ، والإخلاص ، وهما فى المؤمن على أكمل صورة وأروع مثال ، فالصانع المؤمن - مثلاً - ليس همه مجرد الكسب المادى من صنعته ، أو إرضاء صاحب المصنع إن كان يعمل عنده بأجر ، ولكنه أمين على صنعته يخلص فيها جهده ، ويرقب فيها ربه ، ويرعى حق إخوته المؤمنين وهم له أولياء ، وعليه رقباء ، ويرجو بعد ذلك جزاء الله فى الآخرة : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (١) .

إننا كثيراً ما نقرأ فى الصحف ، وما نسمع من الناس ، كما نشاهد نحن بأعيننا ، ما تعانيه المؤسسات العامة من أجهزة تتوقف على جدتها ، وأدوات تخرب على متانتها ، ومصالح تُعطَّل ، مع حاجة الجمهور إليها ، وأعمال يكفيها يوم تستغرق أياماً ، ونتيجة ذلك أن مشروعات نافعة تخفق ، وجهوداً مخلصة تُبعثر ، وأموالاً طائلة تضيع ، وأن الإنتاج العام بعد ذلك كله يتدهور أيما تدهور . وما ذلك إلا لفقدان الأمانة والإخلاص ، وخراب الضمائر عند أولئك الذين لا يرجون لله وقاراً ، ولا يحسبون للآخرة حساباً .

* *

● أثر السكينة النفسية فى الإنتاج :

والمؤمن - بمقتضى إيمانه - يتمتع فى حياته بسكينة النفس ، وطمأنينة القلب ، وانشراح الصدر ، وبسمة الأمل ، ونعمة الرضا والأمن ، وروح الحب والصفاء (٢) ، ولا ريب أن لهذه الحالة النفسية أثرها فى الإنتاج ، فإن الإنسان الشارد أو المضطرب أو القلق أو اليائس أو الحاقد أو الساخط على الناس والحياة ، قلَّما يحسن عملاً يوكل إليه ، أو ينتج إنتاجاً يقنع ويرضى .

---

(١) التوبة : ١٠٥

(٢) انظر فى هذا : كتابنا « الإيمان والحياة » . أثر الإيمان فى حياة الفرد : سكينة النفس ، الأمن ، الرضا ، الأمل ، الحب .

وهذا أمر يُعرف بأدنى ملاحظة ، لا يحتاج إلى إحصاء العالِم ، ولا برهنة الفيلسوف .

* *

● أثر الاستقامة فى الإنتاج :

والمؤمن الصادق الإيمان يقف عند حدود الله ، وينتهى عما نهاه ، وينأى بنفسه عن ارتكاب الموبقات ، والانغماس فى أوحال المحرَّمات ، وإرسال العنان للشهوات ، إنَّ إيمانه يأبى عليه أن يفرغ طاقته فى سهر عابث ، ولهو حرام ، يأبى عليه أن يجرى وراء قدح يفور بالخمر ، أو مائدة تدور بالقمار ، أو جسد يمور بالفتنة .

وبذلك يظل محتفظاً بحيويته وطاقته الجسدية والعصبية والعقلية والنفسية ، فلا يصرفها إلا فى العمل الصالح أو ما يعين عليه من لهو برىء .

وهذا كسب كبير للفرد نفسه ، ولأسرته وأولاده ، وللمجتمع الذى يعيش فيه وللحياة الإنسانية عامة .

إننا لو أحصينا ما تستهلكه الشهوات المحرَّمة ، والموبقات المحظورة ، والملاهى الآثمة - التى يجتنبها المؤمنون الصادقون - من الطاقات الإنسانية والمادية ، لبلغت حداً هائلاً يفوق ما تبتلعه الحروب المدمِّرة ، والأوبئة الفتَّاكة ، والكوارث المخرِّبة ، ولكن الإلف والعادة هما اللذان هوَّنا على الناس هذه الخسائر الفادحة ، التى تصاب بها الإنسانية كل يوم ، بل كل ساعة ، وقد نشرت الصحف أن فى أمريكا ٧٢ مليوناً يتعاطون الخمور ، منهم ٢٠ مليوناً يُكلِّفون الدولة عشرات بلايين الدولارات كل سنة ، بسبب تخلفهم عن العمل، فإذا كانت هذه مغارم الخمر وحدها ، فكم تبلغ مغارم الموبقات الأخرى وسوء أثرها على الإنتاج ؟! .

* *

• إحساس المؤمن بقيمة الوقت :

والمؤمن أعمق الناس إحساساً بقيمة الوقت : أن الله سائله يوم الجزاء عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ فهو لهذا يضن بوقته أن يضيع فى عبث ، أو يُبعثر فى مهب الرياح الهوج ، إنه رأس ماله الوحيد ، فكيف يضيعه ويبقى صِفْر اليدين ؟ إن الوقت نعمة يجب أن تُشكر بالانتفاع بها ، ولا تكفر بالتفريط فيها . وقد قال عمر بن عبد العزيز : إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما .

المؤمن يشعر كأن كل يوم تبزغ شمسه أو ينشق فجره ، يناديه بصوت جهير : أيها الإنسان ؛ أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزوَّد منى واغتنمنى بعمل الصالحات فإنى لا أعود أبداً .

وهو يخشى أن تنفلت الأيام من يديه ، خاوية من العمل والإنتاج ، فلا يؤخِّر عمل اليوم إلى غد ، لأن للغد عمله الذى يزحمه ، فلا يتسع لعمل غيره من الأيام .

وهو كذلك حريص على أن يكون يومه خيراً من أمسه ، وغده خيراً من يومه ، وأن يطيل حياته - بعد موته - بطول أعماله ، وبمد عمره بامتداد الجميل من آثاره ، إنه يحرص أن يخلف وراءه علماً نافعاً ، أو عملاً طيباً ، أو مشروعاً مثمراً ، أو صدقة جارية ، أو ذُرِّية صالحة ، وعلى قدر ما يمتد ويبقى الأثر الذى يخلفه وعلى قدر ما ينتفع الناس به تكون مثوبته عند الله [1] .

* * *

(١) انظر : فصل « الإيمان والإنتاج » من كتابنا « الإيمان والحياة » .

الإنتاج فى دائرة الحلال

ومن الأخلاقيات الأساسية فى الإنتاج ، الملزمة للمسلم ، فرداً أو مجتمعاً : الوقوف عند ما أحلَّ الله تعالى ، فلا يتعداها إلى ما حرَّم الله .

صحيح أن دائرة الحلال واسعة ، ولكن الأنفس البَشرية كثيراً ما يغلبها الطمع والشره ، فلا تقنع بقليل ، ولا تشبع من كثير ، ولا يكفيها الحلال على كثرته وسعته ، فيسيل لعابها إلى الحرام ، ولا تقف عند حدود الله : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

إنَّ المنتجين فى ظل الاقتصاد الوضعى لا يعرفون حلالاً من حرام ، كل همهم منفعتهم الخاصة ، وما يجلب عليهم الإنتاج من مكاسب وفوائد مادية ، لا يهمهم ما ينتجون : أهو نافع أم ضار ؟ طيب أم خبيث ؟ ترضى عنه القيم والأخلاق ، أم تنكره وتسخط عليه ؟

بل هذا التساؤل نفسه غير وارد ، بل هو عندهم غلط من أساسه ، لأنه يربط بين الاقتصاد والأخلاق ، أو بين الإنتاج والقِيَم ، وهو ربط عندهم غير صحيح ، وغير مقبول ، وغير ذى جدوى .

أما المسلم فوضعه مغاير تماماً .

لا يجوز لمسلم أن يزرع ما لا يحل تناوله ، مثل النباتات المخدِّرة المعروفة عند الناس ، كالخشخاش - الذى يستخرج من ثماره الأفيون - وكذلك الحشيش ، وكل ما هو من هذا القبيل .

وكل ما يضر الناس تناوله - بالأكل أو الشرب ، أو المضغ ، أو التدخين ،

---

(١) البقرة : ٢٢٩

أو الاستعاط ، أو الحقن ، أو غير ذلك - فزراعته حرام ، وتصنيعه حرام ، مثل « التبغ » الذى أثبت العلم والتجربة ضرره بيقين ، وحذَّرت منه كل الهيئات العلمية والطبية فى العالَم ، إذ لا يجوز للمسلم أن يضر نفسه ، ولا أن يضارّ غيره ، فلا ضَرر ولا ضِرار فى الإسلام (١) .

ومن المؤسف أن بعض البلاد الإسلامية ، تزرع هذه المواد الضارة ، والمحرَّمة ، ابتغاء عَرَض الدنيا .

وزراعة « الكروم » إذا كانت بقصد عصرها ، لتُستعمل خمراً ، بأن كانت جزءاً من مشروع صناعة الخمور ، كما كان عليه الحال فى الجزائر أيام الاستعمار الفرنسى ، فهى حرام بهذه النية وهذا الربط ، وبيع العنب لمن يعلم أنه يعصره خمراً حرام ، لأنه يعينه على نشر الإثم والرذيلة .

وصناعة الأصنام ، أو التماثيل المحرَّمة ، وأوانى الذهب والفضة ، والتحف الذهبية والفضية ، وحلى الذهب للرجال ، وما شابه ذلك من أدوات الترف المحرَّمة ، كله حرام لأن استعمالها حرام ، ومَن أنتج ما حرم استعماله ، كان شريك المستعمل ، فإذا استعمله الآلاف أو الملايين كان شريكاً لكل واحد منهم فى إثمه ، لأنه سهَّل لهم سبيل الحرام ، فإذا كان المرء ينوء بحمل إثمه وحده، فكيف بمن يحمل أوزار الآلاف أو الملايين ؟!

وفى الصحيح : « مَن سنَّ فى الإسلام سُنَّة سيئة ، فعليه وزرها ، ووزر مَن عمل بها من بعده ، من غير أن ينقُصَ من أوزارهم شىء » (٢) .

ومن ذلك : إنتاج كل ما لا يُستخدم إلا فى الحرام ، أو كان ذلك الغالب عليه عادة ، وإن كان يُستعمل نادراً فى الحلال ، إذ النادر لا حكم له .

أما ما يُستعمل فى كل منهما ، مثل بعض الملابس النسائية التى قد

---

(١) انظر فتوانا : أحكام التدخين فى ضوء النصوص والقواعد الشرعية : ١/ ٦٥٤ - ٦٦٩ ، من كتابنا « فتاوى معاصرة » .

(٢) رواه أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عن جرير (صحيح الجامع الصغير : ٦٣٠٥) .

تستعملها المرأة فى بيتها ، ومع زوجها ومحارمها ، فتكون حلالاً ، وقد تستعملها فى الخارج ومع الرجال الأجانب عنها ، فتكون حراماً ، فهذه لا تحرم صناعتها ، وإن كان الورع يقتضى البُعْد عنها .

ومن أعظم ما يحرم إنتاجه : كل ما يفسد عقائد الناس الصحيحة ، وأخلاقهم الفاضلة ، ويسلخهم من هُويتهم ، ويزلزل قيمهم الدينية والخُلُقية ، ويشغلهم بالهزل عن الجد ، وبالباطل عن الحق ، وبالدنيا عن الآخرة ، مثل الإنتاج المتصل بالفن بأشكاله المختلفة : المسرحيات ، والأفلام ، والمسلسلات ، والأغانى ، وغير ذلك مما يتعلق بالإعلام : المقروء ، والمسموع ، والمشاهَد ، مما لا يتقيد بقِيَم ولا عقائد ولا أخلاق ، ولا يفكر فى حلال ، ولا حرام ، إنما كل فكره وهمه فى الدخل والكسب والإيراد .

إن إنتاج هذه المواد أشد خطراً ، وأبعد أثراً ، من إنتاج المسكرات والمخدرات ، برغم ما نعرفه من خطرها على ضحاياها من المدمنين الضائعين .

وما ذلك إلا لأن هذه خطر على الأجسام ، وتلك خطر على العقول ، هذه خطر يُقاوَم ويُحذَر منه ، وتلك خطر لا يُقاوَم ، بل يُنشر ويُشاع ، هذه يُعاقَب مروجها ، وتلك يُكرَّم منتجها ، وبائعها ومروِّجها ، وكل مَن شارك فيها !

ثم إن هذه المواد الإعلامية الخطرة هى التى تمهد السبيل لتلك السموم ، بمختلف ألوانها وأسمائها ، فهى تخدرهم قبل المخدرات ، وتسكرهم قبل المسكرات ، وتميتهم قبل الموت !

فصُنَّاع هذه « المنتجات » والمساهمون فيها - من كاتب النص والحوار ، والمخرج ، والممثل ، والمطرب ، والمنفذ ، والمصوِّر ، والمدير ، والموزِّع .... وغيرهم - مسؤولون أمام الله عن جنايتهم على المجتمع ، وكل مَن تأثر بعملهم : ﴿ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** ﴾ (١) .

* * *

(١) النحل : ٢٥

المحافظة على الموارد

ومن الأخلاقيات المهمة هنا : المحافظة على « الموارد » باعتبارها نعماً من الله تعالى على خلقه ، فواجبهم أن يقوموا بشكرها ، ومن شكرها المحافظة عليها من التلف أو الخراب أو التلوث أو غير ذلك ، مما يعتبر نوعاً من الإفساد فى الأرض .

والله تعالى يقول : ﴿ وَلا تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ (١) .

وقال تعالى لبنى إسرائيل بعد أن فَجَّر لهم فى التيه اثنتى عشرة عَيْناً : ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللهِ وَلا تَعْثَوْاْ فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

وقال شعيب لقومه : ﴿ وَلا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ (٣) .

وقيل ذلك : قال صالح لقومه : ﴿ فَاذْكُرُواْ آلاءَ اللهِ وَلا تَعْثَوْاْ فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٤) .

والإفساد فى الأرض قد يكون مادياً ، بتخريب عامرها ، وتلويث ظاهرها ، وإهلاك أحيائها ، وإتلاف طيباتها ، أو تفويت منفعتها .

وقد يكون معنوياً ، بإشاعة الظلم ، ونشر الباطل ، وتقوية الشر ، وتلويث الضمائر ، وتضليل العقول .

وكلاهما شر يبغضه الله تعالى ، ولا يحب أهله .

---

(١) الأعراف : ٥٦ (٢) البقرة : ٦٠

(٣) الأعراف : ٨٥ (٤) الأعراف : ٧٤

لهذا تكرر فى القرآن أن الله ﴿ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) و﴿ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ (٢) .

وذمَّ الله اليهود بقوله : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَاداً ، وَاللهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣) .

● تعطيل الثروة الزراعية والحيوانية من عمل الشرك :

ولقد حمل القرآن على نوع من الفساد شاع لدى مشركى العرب ، وهو تعطيل بعض الموارد الزراعية والحيوانية ، بناء على أوهام وأباطيل شِرْكية ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وناقشهم مناقشة مفصَّلة فى سورة الأنعام كما فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ هَذِه أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إلا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افتِرَاءً عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ (٤) .

وفى سورة يونس خاطبهم بقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (٥) .

* *

● الوعيد على قتل عصفور عبثاً :

وأكدت السُّنَّة الأمر بالمحافظة على الموارد بأساليب شتَّى من الترغيب والترهيب .

من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَن قتل عصفور عبثاً ، عجّ إلى الله يوم القيامة ، يقول : يا ربِّ ، إنَّ فلاناً قتلنى عبثاً ، ولم يقتلنى منفعة » (٦) .

---

(١) المائدة : ٦٤ (٢) البقرة : ٢٠٥ (٣) المائدة : ٦٤
(٤) الأنعام : ١٣٨ (٥) يونس : ٥٩
(٦) رواه النسائى : ٧/ ٢٣٩ ، وابن حبان فى صحيحه (الموارد : ١٠٧١) ، وأحمد أيضاً : ٤/ ٣٨٩ كلهم عن الشريد الثقفى .

« ما من مسلم يقتل عصفوراً فما فوقها ، بغير حقها ، إلا يسأله الله عَزَّ وجَلَّ عنها » ، قيل : يا رسول الله ؛ وما حقها ؟ قال : « أن يذبحها فيأكلها ، ولا يقطع رأسها ، ويرمى بها » (١) .

والحديثان يدلان دلالة قوية على احترام كل ذى روح من الطير والحيوان ، ومنع قتله لغير حاجة ولا منفعة معتبرة ، كما يرشدان إلى المحافظة على موارد الثروة ، وعدم تبديدها باللهو والعبث ، أى لغير منفعة اقتصادية .

بالإضافة إلى ما يدل عليه الحديثان من المحافظة على البيئة بكل ما فيها من الكائنات الحية ، التى أصبح التقدم التكنولوچى خطراً عليها .

* *

● قاطع السِدْر فى النار :

يؤكد هذا التوجه هذا الحديث الشريف : « مَن قطع سِدْرة صوّب الله رأسه فى النار » (٢) .

قال أبو داود بعد أن روى هذا الحديث : يعنى مَن قطع سِدرة فى فلاة ، يستظل بها ابن السبيل والبهائم ، عبثاً وظلماً ، بغير حق يكون له فيها ، صوّب الله رأسه فى النار (٣) .

وفى هذا الوعيد الشديد توجيه إلى المحافظة على الأشجار ، ومنها أشجار

---

(١) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو (٦٥٥١) ، وبأخصر منه (٦٥٥٠) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، ورواه النسائى ص ٢٠٧ ، ٢٣٩ ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبى : ٤/ ٢٣٣ ، كما أقره المنذرى فى الترغيب والترهيب ، كما رواه الطيالسى والحميدى والدارمى . انظر تعليقنا على الحديثين ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ من (المنتقى من الترغيب والترهيب) طبع دار الوفاء .

(٢) رواه أبو داود فى الأدب (٥٢٣٩) ، عن عبد الله بن حبشى وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٦٤٧٦) ، والمراد بالسدرة : شجرة السدر (النبق) التى يكثر وجودها فى البرارى .

(٣) انظر سنن أبى داود : ٣/ ٤٠٤

البَرّ والغابات ، لما فيها من نفع كبير للبيئة ، فلا يجوز أن تُقطع إلا بقدر وحساب ، بحيث يغرس مكانها غيرُها ، مما يقوم بوظيفتها .

* *

● الحفاظ على الحيوانات من العدوى :

ومن التوجيهات النبوية حديث : « لا يوردنَّ مُمْرِض على مُصِح » (١) .

والممرض : صاحب الإبل المريضة بداء الجرب ، والمصح : صاحب الإبل الصحيحة السليمة ، فعندما تورد الإبل للشرب ، يجب على صاحب الإبل المريضة ألا يوردها على الإبل السليمة ، فتحتك بها فتعديها ، وهذا توجيه لوقايتها من المرض ، فإذا أصيبت ، فيجب أن تُعالَج حفاظاً عليها ، باعتبارها كائناً حياً من ناحية ، وباعتبارها مالاً نامياً من ناحية أخرى ، ولا يتم هذا الواجب إلا بطب بيطرى متخصص ، فهو مطلوب شرعاً .

* *

● إياكَ والحلوب :

ومن روائع ما ورد فى السُّنَّة فى المحافظة على الموارد : قول النبى ﷺ لمضيّفة الأنصارى الذى أراد إكرامه بذبح شاة : « إياكَ والحلوب » (٢) .

قاله له حينما أخذ الرجل المدية ومضى ليذبح .

ومعنى الحديث : أنه عليه الصلاة والسلام نهى المضيّف أن يعمد إلى شاة ينتفع بدرها ولبنها ، لأنها حلوب ، فيذبحها ، فيخسر درها وحليبها ، ويخسرها معه المجتمع ، ويغنى عنها شاة أخرى غير حلوب .

وربما يقول بعض الناس : وماذا يؤثر ذبح شاة فى موارد مجتمع أو أُمَّة ؟

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (١٤٣٦) .

(٢) رواه مسلم فى الأطعمة عن أبى هريرة (١٠٣٨) .

والجواب : أن الرسول الكريم يُربِّى الأُمَّة على قِيَم وأخلاق معيَّنة ينبغى أن يلتزم بها الجميع ، ورعاية هذه القِيَم والأخلاقيات على مستوى الأُمَّة ذو مردود هائل ، عند مَن يتدبرون الأُمور .

* *

● الانتفاع بجلد الميتة :

وأكثر من ذلك قوله لأصحابه ، وقد رأى شاة ميتة : « لمن هذه الشاة » ؟ قالوا : إنها شاة لمولاة ميمونة - أُم المؤمنين - قال : « هلا انتفعتم بجلدها » ؟ قالوا : إنها ميتة ، قال : « إنما حُرِّم أكلها » (١) .

فهو ينبههم على الاستفادة بجلد الشاة - فروتها - بأن يُدبغ ، فيطهر بالدباغ ، ويُنتفع به .

* *

● لا تترك اللُّقمة للشيطان :

وأكثر من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا سقطت لقمة أحدكم ، فليأخذها ، وليمط عنها الأذى ، وليأكلها ولا يدعها للشيطان » (٢) .

قال أنس : وأُمِرنا أن نسلت القصعة : أى نتتبع ما فيها من بقايا باللعق أو المسح ، بحيث لا تُترك فيها فضلات .

لقمة واحدة ، تسقط ، فتُهمل وتُترك ولا يستفيد منها أحد ، إلا سلال القمامة ، اعتبرها النبى ﷺ قد تُرِكت للشيطان ، وكل ما لا يُستفاد منه خير فهو للشيطان .

---

(١) متفق عليه عن ابن عباس ، انظر : اللؤلؤ والمرجان (٢٠٥) .

(٢) رواه مسلم عن أنس ، وروى نحوه عن جابر .

وكان يمكن بعمل سهل أن يُنتفع بها ، وهو إماطة ما أصابها من أذى من غبار ونحوه ، وهذه تربية رفيعة : خُلُقية واقتصادية فى نفس الوقت .

فأين هذا مما نراه اليوم ، وصناديق القمامة تمتلىء بفضلات الطعام ، من اللَّحم والأُرز والخبز وغيرها ، مما يتمنى كثير من المسلمين فى العالَم لو أصابوا شيئاً منه !

لا ينبغى أن يُستهان بهذه التوجيهات النبوية ومردودها الاقتصادى ، فإنها - على مستوى الأُمَّة الكبرى - يمكن أن تحقق الكثير الكثير ، وتوفر للمجتمع كله الملايين ، بل البلايين .

* *

● **إحياء الموات :**

ومن أعظم الموارد التى عُنِىَ الإسلام بالمحافظة عليها ، وعمل على تنميتها ، والاستفادة من خيراتها : الأرض الزراعية التى هى مصدر القوت والطعام للإنسان ، كما قال تعالى : ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِه * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ** ﴾ (١) .

ومن أفضل الأعمال التى حثَّ عليها الإسلام ، ورغَّب فيها ، ووعد فاعليها بأعظم المثوبة : استصلاح الأراضى البور ، لما فيه من توسيع الرقعة الزراعية وزيادة مصادر الإنتاج ، وقد عُرِف هذا الأمر فى الفقه الإسلامى بعنوان مُعبِّر جميل هو : « إحياء الموات » ، أو إحياء الأرض الميتة ، قال رسول الله ﷺ : « مَن أحيا أرضاً ميتة فهى له ، وما أكلت العافية (طُلاب

---

(١) عبس : ٢٤ - ٣٢

الرزق) منها ، فهى له صدقة » [1] ، قال أبو عبيد : العافية : من السباع والطير والناس وكل شيء يعتافه .

وكان من سياسة النبى - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه الراشدين : الإقطاع من هذه الأراضى البور لبعض الرجال الذين أدَّوْا خدمات ممتازة للدولة الإسلامية ، فهى مكافأة لهم من جهة ، وتشجيع على استصلاحها وعمرانها من جهة أخرى .

ومَن قُطِع له من هذه الأرض مساحة معيَّنة ، ثم تركها بغير أن يعمرها ويصلحها كان لولى الأمر أن ينتزعها منه ، ويعطيها لغيره ممن يقوم بإحيائها .

وقد روى أبو عبيد وغيره عن بلال بن الحارث المزنى : « أن النبى ﷺ أقطعه العقيق - أرضاً بالمدينة - فلما كان زمان عمر ، قال لبلال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يُقطعك لتحتجزه عن الناس ، وإنما أَقْطَعكَ لتعمل ، فخُذْ منها ما قدرتَ علىَ عمارته ، وردَّ الباقى » [2] .

وعن عبد الله بن عمر قال : كان عمر بن الخطاب يخطب على هذا المنبر يقول : « يا أيها الناس ؛ مَن أحيا أرضاً ميتة فهى له » ، وذلك أن رجالاً كانوا يحتجزون من الأرض ما لا يعمرون .

وكان من سُنَّة عمر تشجيع الأفراد العاملين على زيادة الإنتاج كنافع أبى عبد الله الذى كتب إلى واليه بالبصرة فى شأنه يقول : أما بعد ، فإن أبا عبد الله ذكر أنه زرع بالبصرة . . وافتلَى أولاد الخيل (رعاها بالفلاة) حين لم يَفْتَلِها أحد من أهل البصرة ، وإنه نعم ما رأى ، فأعنْهُ على زرعه وعلى خيله ، فإنى قد أذنت له أن يزرع ، وآته أرضه التى زرع . . . ولا تعرض له إلا بخير . . . » [3] .

* * *

(١) الجملة الأولى من الحديث رواها أحمد وأبو داود والترمذى عن سعيد به زيد ، والترمذى عن جابر ، والحديث بجملته رواه أبو عبيد فى الأموال ، ورواه بصيغة قريبة : أحمد والنسائى وابن حبان ، والضياء عن جابر ، وانظر صحيح الجامع الصغير ص٥٩٧٤ - ٥٩٧٦ (٢) الأموال ص ٢٩٠

(٣) من هامش الأموال عن البلاذرى ص ٣٤٦ ، وفى الأموال نحوه ص ٢٧٧

هدف الإنتاج

هكذا رأينا الاقتصاد الإسلامى يحرص على الإنتاج ، وتنميته كماً ، ونوعاً ، ولا يرضى بتعطيل الطاقات المادية ولا البَشرية ، بل يجندها جميعاً للإنتاج ، الذى يتميز بالإتقان الذى يحبه الله ، والإحسان الذى كتبه الله على كل شىء .

والسؤال هنا : لماذا ننتج ؟ أو : ما الهدف الذى نبغى تحقيقه من وراء الإنتاج ؟

والجواب : أننا ننتج لتوفير القدر الكافى من « الطيّبات » المتمثلة فى السلع والخدمات التى تتحقق بها « الحياة الطيّبة » التى ينشدها الإسلام للناس . .

وإذا أردنا التفصيل قلنا : إن الإنتاج هنا ينشد تحقيق هدفين أساسيين ، وإن شئنا قلنا : ينشد هدفاً أساسياً على مستويين : مستوى الفرد المسلم ، ومستوى الأُمَّة المسلمة .

فبالنسبة للفرد المسلم . . يهدف إلى تحقيق « تمام الكفاية » له .

وبالنسبة للأُمَّة المسلمة . . يهدف إلى تحقيق « الاكتفاء الذاتى » لها .

وهذا ما نشرحه فى الصفحات التالية . . .

* * *

تحقيق تمام الكفاية للفرد

للمعيشة الإنسانية - فى المجال الاقتصادى - مستويات أربعة ، بعضها دون بعض .

هناك « مستوى الضرورة » ، وهى الحالة التى يعيش فيها الإنسان على ما يمسك عليه الرمق ، ويُبقى عليه أصل الحياة ، ويدفع عنه الهلاك أو الموت .

وهى حالات الذين يعيشون فى أتون المجاعات ، ونرى صورهم فى التلفاز أحياناً كأنهم هياكل عظمية ، أو أشباح هاربة من القبور .

وبقاء مثل هؤلاء بهذه الصورة البائسة بين البَشر ، نقطة سوداء فى جبين الإنسانية التى تنفق عشرات المليارات على التسليح بكل أنواعه .

وهناك مستوى أحسن من هذا وهو « مستوى الكفاف » ، وهو الذى يمثل الحد الأدنى للمعيشة دون زيادة ولا نقصان ، فلا مجال فيه للون من السعة والترفه .

وهناك مستوى أفضل من هذا ، وهو الذى يسميه الفقهاء « تمام الكفاية » للإنسان فليس المقصود إذن هو مجرد الكفاية ، بل الكفاية التامة بكل عناصرها ومقوِّماتها ، وهذا هو المستوى الذى يريده الإسلام لأبنائه ، بل لكل مَن يعيش فى ظله ، مسلماً أو غير مسلم .

قال النووى فى تحديد الكفاية : قال أصحابنا : « المعتبر . . المطعم ، والملبس ، والمسكن ، وسائر ما لا بد له منه ، على ما يليق بحاله ، بغير إسراف ولا إقتار ، لنفس الشخص ولمن هو فى نفقته » (١) .

وإذا كان الإمام النووى قد اعتبر مستوى الكفاية على ما يليق بحال كل فرد

---

(١) المجموع : ٦/ ١٩١ ، وانظر : الروضة : ٢/ ٣١١

بالمعروف ، فنحن نضيف هنا عنصراً جديداً ، وهو : ما يليق بزمانه وبيئته ، فإن الحاجات تتطور بتطور الأزمنة ، وتتغير بتغير البيئات . وكم من أشياء كانت كمالية أو ترفيّة فى زمن ما ، غدت اليوم حاجية أساسية ، وكم من أشياء تُعَد فى بعض البيئات تحسينية تُعتبر فى بيئة أخرى وكأنها من الضرورات ، فلا جمود فى تقدير الحاجات والمطالب الاقتصادية للإنسان .

وهناك فوق ذلك : مستوى الترف ، وهو مرفوض إسلامياً ، وسنتحدث عنه بعد .

فالإسلام لا يرضى لأبنائه المستوى الدون من المعيشة ، بل لا بد أن يكون هذا المستوى على نسبة معقولة من الارتفاع ، بحيث يتوافر فيها العناصر التالية :

١ - قدر من الغذاء الكافى ، لإمداد الجسم بالطاقة التى تلزمه للقيام بواجبه : نحو ربه كالصلوات الخمس ، وواجبه نحو نفسه وأُسرته ومجتمعه ، والرسول ﷺ يقرر أن للبدن حقاً لا بد أن يُعطَاه : « إن لبدنك عليك حقاً » (١) ، وينبغى أن يكون هذا الغذاء متكاملاً ، بحيث يشتمل على المواد التى يتطلبها الجسم (من بروتين ونشا وسكر ودهن وأملاح وفيتامين وغيرها) ، ولا عجب إذا امتنَّ القرآن بذكر لحوم الأنعام والأسماك واللَّبن والعسل والفاكهة وغيرها . . ويكفى أن نقرأ سورة كسورة النحل ، لنلمح فيها صورة للحياة التى يريد الله لعباده أن ينعموا بطيّباتها .

٢ - قدر من الماء يكفيه للشرب والرى ، ويعينه على النظافة العامة التى هى من آداب الإسلام ، وعلى الطهارة الخاصة التى هى من شروط صحة الصلاة ، كالوضوء من الحَدَث ، والغُسْل من الجنابة ، فضلاً عن الاغتسال الأُسبوعى الذى جاءت به السُّنَّة : « غُسْل الجمعة واجب على كل محتلم

---

(١) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو .

(أى بالغ) » [1] ، « حق على كل مسلم فى كل سبعة أيام يوم يغسل فيه رأسه وجسده » [2] .

٣ - لباس يحقق ستر العورة ، والوقاية من حَرِّ الصيف وبرد الشتاء ، وحُسن المظهر أمام الناس ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ** ﴾ [3] ، والريش : ما يحقق الزينة والجمال ، وقال : ﴿ **وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ** ﴾ [4] ، وقال : ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ** ﴾ [5] أى : والبرد .

وهذا يستلزم أن يتوافر لكل فرد - كحد أدنى - ملبس مناسب للشتاء ، ولبس مناسب للصيف ، وهذا ما أوجبه ابن حزم لكل مسلم أو ذِمِّى فى ظل نظام الإسلام ، وأجاز له أن يقاتل للحصول عليه .

وفوق هذا الحد الأدنى ينبغى أن يتهيأ للمسلم ما يتجمل به فى المناسبات كالجُمَع والأعياد ، كما كان للنبى - صلى الله عليه وسلم - وذلك لئلا يؤذى الآخرين بلباس مهنته .

٤ - مسكن صحى يحقق :

(أ) معنى السكون الذى امتنَّ الله به حين قال : ﴿ **وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً** ﴾ [6] .

(ب) وعنصر السعة التى جعلها النبى ﷺ من مقوِّمات السعادة الدنيوية

---

(١) رواه مالك وأحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أبى سعيد (صحيح الجامع الصغير : ٤١٥٥) .

(٢) متفق عليه عن أبى هريرة (اللؤلؤ والمرجان ص ٤٩٢) .

(٣) الأعراف : ٢٦ (٤) النحل : ٥

(٥) النحل : ٨١ (٦) النحل : ٨٠

فقال : « ثلاث خصال من سعادة المرء المسلم فى الدنيا : الجار الصالح ، والمسكن الواسع ، والمركب الهنئ » (١) .

(جـ) وعنصر الوقاية من أخطار الطبيعة كالمطر والشمس والعواصف ونحوها .

(د) وعنصر الاستقلال ، بحيث لا تنكشف عوراته للناظرين من الغادين والرائحين ، هذا الاستقلال الذى تدل عليه الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا ﴾ (٢) .

وهذا ما نص عليه ابن حزم أيضاً فيما افترض توافره لكل فرد حيث قال : « ومسكن يقيهم الشمس والمطر وعيون المارة » .

والأصل أو الظاهر - حسبما نص عليه فقهاء الإسلام - أن يكون هذا المسكن مِلْكاً للإنسان ، لا مُستأجَراً . . وهذا مستوى لا تزال كثير من الدول الغنية دون الوصول إليه .

ومما يلزم لهذا المسكن الذى ينشده الإسلام : أن يكون من السعة ووفرة الأثاث بحيث يضمن معه تنفيذ أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بالتفريق بين الأولاد فى المضاجع ، إذا بلغوا عشر سنوات من عمرهم (٣) .

كما ينبغى أن تكون فيه حجرة للضيف يطرأ على أهل البيت من أقاربهم أو من غيرهم ، وهو ما كان يسميه الناس « حجرة المسافرين » ، وفى هذا روى مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ أنه قال : « فراش للرجل ، وفراش لامرأته ، وفراش للضيف ، والرابع للشيطان » (٤) .

---

(١) رواه أحمد والطبرانى والحاكم وصححه ووافقه الذهبى عن نافع بن عبد الحارث كما فى فيض القدير . (٢) النور : ٢٧

(٣) حديث : « وفرّقوا بينهم فى المضاجع » رواه أحمد وأبو داود والحاكم ، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وسنده حسن .

(٤) رواه مسلم عن جابر . مختصر مسلم للمنذرى (١٣٥٣) .

٥ - قدر من المال يدخره ليتزوج به ويكوِّن الأسرة المسلمة ، إذ لا رهبانية فى الإسلام ، وقد نهى النبى ﷺ عن التبتل (أى الانقطاع عن الزواج للعبادة) ، وأعلن أن الزواج من سُنَّته ثم قال : « مَن رغب عن سُنَّتى فليس منى » (١) ، وخاطب الشباب فقال : « يا معشر الشباب ؛ مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفَرْج » (٢) ، وقال : « الدنيا كلها متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » (٣) .

وقد ذكر الفقهاء فى أبواب النفقات ، وفى أبواب الزكاة من كتب الفقه : أن الزواج من تمام الكفاية ، وخصوصاً إذا كان المرء تائقاً له ، ومحتاجاً إليه ، ويخاف على نفسه العنت (٤) .

٦ - قدر من المال يعينه على طلب العلم الواجب تعلمه عليه وتوفيره لأبنائه وبناته : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (٥) ، ويهيئ لكل ذى فن كتبه التى يحتاج إليها فى فنه .

والعلم الواجب طلبه وتعلمه قد يكون علماً دينياً ، وهو ما يصحح به عقيدته وعبادته ويجعله على بيِّنة من ربه ، وبصيرة من أمره ، وما يضبط سلوكه وفقاً للمعايير الشرعية فى الحلال والحرام .

وقد يكون علماً دنيوياً ، يتغير بتغير العصر والبيئة ، وهو درجات ومستويات ، أدناها الحد الذى تُلزِم به الدول أبناءها .

٧ - العلاج إذا مرض ، استجابة لقول الرسول ﷺ : « يا عباد الله

---

(١) متفق عليه عن أنس .

(٢) رواه الجماعة عن ابن مسعود ، صحيح الجامع الصغير (٧٩٧٥) .

(٣) رواه مسلم وأحمد والنسائى عن عبد الله بن عمرو ، صحيح الجامع الصغير : (٣٤١٣) .

(٤) انظر : كتابنا « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام » ص ٨٩ ، ٩٠

(٥) رواه ابن ماجه وغيره من طرق انتهى بها السيوطى إلى الصحة ، وكذلك صححه فى عصرنا الألبانى فى تخريج كتابنا « مشكلة الفقر » .

تداووا فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواء » [1] ، والأصل فى مثل هذا الأمر أن يكون للوجوب ، وخاصة التداوى من الأمراض التى عُرِف بالتجربة دواؤها وعلاجها ، ولا سيما فى عصرنا هذا الذى تقدَّم فيه علم الطب تقدماً ملموساً تحقق به قول الرسول ﷺ : « ما أنزل الله داءً ، إلا أنزل له الدواء » [2] ، « لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواءُ الداءَ برىء بإذن الله » [3] .

وقد خدم الطب تقدم العلوم الأُخرى من التشريح ووظائف الأعضاء والكيمياء والفيزياء ، والأليكترونيات ، وغيرها . .

وقد يستغنى الفرد عن المال الذى يحتاج إليه لتعليم أولاده أو علاجهم وعلاج نفسه ، إذا كان العلم والعلاج مبذولين وميسَّرين لكافة الناس . . وهو ما ينبغى أن تحرص عليه دولة تتخذ الإسلام منهاجاً ونظاماً . وهذا ما سار عليه المسلمون أيام ازدهار حضارتهم فكانت المستشفيات للجميع مجاناً ، وكذلك العلم فى المدارس للجميع بلا أجر ، هذه تُقدِّم غذاء العقول ، وتلك تُقدِّم دواء الأبدان .

٨ - فضل من مال يدخره أيضاً ليحج به بيت الله الحرام ، ويؤدى به فريضة العمر ، ويحيى مع إخوانه المسلمين هذا الركن العظيم من أركان الإسلام : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [4] .

صحيح أنه ليس فرضاً على المسلم أن يطلب المال ليحقق به الاستطاعة التى جعلها الله شرطاً لوجوب الحج ، ولكن المسلمين بوصفهم جماعة فُرِض

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٧٦٣٤) .

(٢) رواه البخارى وغيره عن ابن مسعود ، ومثله عن أبى هريرة عن ابن ماجه (المصدر السابق : ٥٥٥٩ ، ٥٥٦٠) .

(٣) رواه أحمد ومسلم عن جابر ، المصدر نفسه (٥١٦٤) (٤) آل عمران : ٩٧

عليهم أن تظل هذه الشعيرة قائمة ، وأن يظل هذا الموسم عامراً دافقاً بالمؤمنين الآتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله .

كما أن المسلم بمقتضى إيمانه وحنينه إلى الأرض المقدسة ، وشوقه إلى إقامة هذه الشعيرة العظيمة ، يظل معلّق القلب ببيت الله العتيق ، راغباً فى الطواف به مع الطائفين والقائمين والركّع السجود ، ساعياً فى تحقيق هذه الرغبة بكل ما يستطيع ، فهو بهذا حاجة من الحاجات التى يسعى المسلم لإشباعها .

وقد أدّت هذه الأشواق والرغبات الفردية فى الحج فى بعض البلاد الإسلامية - مثل « ماليزيا » - إلى إقامة مؤسسة للحج تجمع من المسلمين الراغبين مدخرات سنوية وتنميها لحسابهم ، وقد نمت هذه المؤسسة ، وغدت تملك عمارات شاهقة ، وطاقات اقتصادية كبيرة .

هذا ما يجب أن يتوفر فى ظل نظام الإسلام لأوساط الناس ، حتى يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم ويشعروا بنعمة ربهم عليهم .

وحسبنا أن نقرأ بعض الآيات من سورة النحل ، لنرى فيها صورة لما يجب أن تكون عليه حياة الإنسان فى الأرض ، حتى يشكر نعمة الله ، ويفهم خطابه فى كتابه . قال تعالى : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (١) ، ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوْا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (٣) ، ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ

(١) النحل : ٤ (٢) النحل : ١٠ - ١١ (٣) النحل : ١٤

بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢) ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ (٣) ، ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ، وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (٤) .

هذه حياة الإنسان كما تُصوِّرها هذه الآيات : مطاعم من لحوم الأنعام ، ومن سمك البحر ، ومن الزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ومن اللبن الخالص السائغ للشاربين ، ومن المربيات وغيرها مما يُتخذ من ثمرات النخيل والأعناب من سكر ورزق حسن ، ومن عسل النحل مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس ، وغيرها مما رزق الله وامتن به من الطيبات .

وملابس تقي الحر ، وبالتالي تقي البرد ، من صوف الأغنام ونحوها : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ ، ودروع تقي البأس وشدة الحرب : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ .

وبيوت جعلها الله سكناً لا سجناً ، وزواج يجد الإنسان فيه السكينة والأُنس ، كما يجد فيه الذُرِّية والنسل : ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ، وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ .

* * *

(١) النحل : ٦٦ - ٦٩
(٢) النحل : ٨٠
(٣) النحل : ٨١
(٤) النحل : ٧٢

تحقيق الاكتفاء الذاتى للأُمة

والهدف الآخر للإنتاج هو : تحقيق الاكتفاء الذاتى للأُمَّة .

بمعنى أنها يجب أن يكون لديها من الإمكانات والقدرات والخبرات والوسائل ما يفى بحاجاتها المادية والمعنوية ، ويسد ثغراتها المدنية والعسكرية ، عن طريق ما يسميه الفقهاء « فروض الكفاية » ، وهى تشمل كل علم أو عمل أو صناعة أو مهارة يقوم بها أمر الناس فى دينهم أو دنياهم ، فالواجب عليهم حينئذ تعلمها وتعليمها وإتقانها حتى لا يكون المسلمون عالة على غيرهم ، ولا يتحكم فيهم سواهم من الأُمم الأُخرى .

وبغير هذا الاستغناء والاكتفاء لن يتحقق لهم العزَّة التى كتب الله لهم فى كتابه : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وبغيره لن يتحقق لهم الاستقلال والسيادة الحقيقية ، وهو ما ذكره القرآن : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (٢) .

ولن يتحقق لهم مكان الأُستاذية والشهادة على الأُمم ، وهو المذكور فى قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (٣) .

فلا عزَّة لأُمَّة يكون سلاحها من صنع غيرها ، يبيعها منه ما يشاء ، متى يشاء ، بالشروط التى يشاء ، ويكف يده عنها أنَّى شاء ، وكيف يشاء .

ولا سيادة حقيقية لأُمَّة تعتمد على خبراء أجانب عنها فى أخص أُمورها ، وأدق شئونها ، وأخطر أسرارها .

---

(١) المنافقون : ٨ (٢) النساء : ١٤١ (٣) البقرة : ١٤٣

ولا استقلال لأُمَّة لا تملك قوتها فى أرضها ، ولا تجد الدواء لمرضاها ، ولا تقدر على النهوض بصناعة ثقيلة ، إلا باستيراد الآلة والخبرة من غيرها .

ولا أُستاذية لأُمَّة ، لا تستطيع أن تُبلِّغ دعوتها عن طريق الكلمة المقروءة أو المسموعة ، أو المصوَّرة المرئية إلا بشرائها من أهلها القادرين عليها ، ما دامت لا تصنع مطبعة ، ولا محطة إذاعة ، ولا تلفاز ، ولا أقماراً صناعية !

* * *

obeikandl.com

كيف نحقق الكفاية للفرد وللأُمَّة ؟

إن تحقيق تمام الكفاية للفرد والاكتفاء الذاتى للأُمَّة ، لا يتم اعتباطاً ، ولا ينزل رزق الله من السماء فى علب .

وقد قال عمر رضى الله عنه : لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللَّهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة !

● تحقيق الكفاية على مستوى الفرد :

ولهذا لا بد - على المستوى الفردى - أن يبحث كل إنسان عن العمل الذى يلائمه ، ليكفى نفسه بنفسه ، ولا يعيش كَلا على غيره ، ولا يستنكف من أى عمل حلال شريف ، وإن كان إيراده قليلاً فى أول الأمر ، فإن القليل يكثر ، والصغير يكبر ، ودوام الحال من المحال ، وسيجعل الله من بعد عُسْرٍ يُسْراً ، وعلى المجتمع والدولة أن يعين الفرد حتى يجد العمل الذى يغنيه ، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته .

ولا يحل للمسلم أن يعتمد على سؤال الآخرين ، أو قبول الصدقات منهم ، وهو قَوِىٌ سَوِى قادر على الكسب والعمل ، فهذا ما حذَّر منه رسول الله ﷺ .

يقول : « مَن سأل الناس أموالهم تكثراً ، فإنما يسأل جمراً ، فليستقل أو ليستكثر » [1] ، فصوَّر المال الذى يأخذه بغير حق فى صورة الجمر الذى يُكوَى به .

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة (١٠٤١) .

وفى الحديث الآخر : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مِرَّة سَوِىّ » (١) .

ذو مرة : أى ذو قوة . وسَوِىّ : أى سليم الأعضاء من الآفات والعاهات المانعة من العمل . وفى عصرنا أمكن التغلب بواسطة العلم على أكثر عاهات المعوَّقين ، وأمكن تعليمهم وتدريبهم على أعمال مناسبة لهم ، فالواجب على المجتمع المسلم تيسير ذلك للمعوَّقين من أبنائه .

وفى حديث قبيصة بن المخارق رضى الله عنه حدّد الأُمور التى تجيز للمسلم السؤال . يقول قبيصة : تحملتُ حَمَالة ، فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها ، فقال : « أقم حتى تأتينا الصدقة (يعنى الزكاة) فنأمر لك بها » ، ثم قال : « يا قبيصة ؛ إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمَّل حَمَالة فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله ، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال : سداداً من عيش - ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجى من قومه : لقد أصابت فلاناً فاقة ، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال : سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت ، يأكلها صاحبها سحتاً » (٢) .

فهذه هى الأُمور الثلاثة التى تبيح المسألة والأخذ من الصدقة : الحَمَالة ، والجائحة ، والفاقة .

والحَمَالة : أن يقع قتال أو نزاع بين فريقين ، فيُصلح إنسان بينهم على مال يتحمله ويلتزمه على نفسه ، وقد يكون فوق طاقته ، فيصبح من « الغارمين » .

والجائحة : آفة تصيب مال الإنسان ، كأن يحترق مسكنه أو متجره ، أو يسطو عليه اللصوص ، أو يذهب السيل بماله ، أو نحو ذلك ، فهنا تحقق الزكاة له لوناً من الضمان أو التأمين الاجتماعى .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم عن ابن عمر ، وأحمد والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة ، صحيح الجامع الصغير (٧٢٥١) .

(٢) رواه مسلم (١٠٤٤) ، وأبو داود (١٦٤٠) ، والنسائى : ٥/٩٦ ، ٩٧

والفاقة : الفقر والعوز والحاجة ، تصيب الإنسان بعد أن كانت حاله طيبة ، فيحتاج إلى إثبات ذلك ، عن طريق ثلاثة من عقلاء قومه يشهدون بحاجته .

* *

● تحقيق الكفاية على مستوى الأُمَّة :

وأما تحقيق الكفاية الذاتية على مستوى الأُمَّة ، فهذا أمر فى غاية الأهمية ، وله وسائله وأدواته ، التى يجب على الأُمَّة بالتضامن رعايتها نظراً ، وتطبيقها فعلاً ، وبخاصة أُولو الأمر الذى ولاهم الله أمر الأُمَّة . من هذه الوسائل :

* ضرورة التخطيط :

١ - لا بدّ من التخطيط القائم على الإحصاء الدقيق ، والأرقام الحقيقية ، والمعرفة اللازمة بالحاجات المطلوبة ومراتبها ومدى أهميتها ، والإمكانات الموجودة ، ومدى القُدْرة على تنميتها ، والوسائل الميسورة لتلبية الحاجات ، والتطلع إلى الطموحات .

وقد ذكر لنا القرآن الكريم نموذجاً من التخطيط امتد لخمسة عشر عاماً ، قام به رسول كريم من رسل الله ، هو يوسف الصِّدِّيق عليه السلام ، وبهذا التخطيط - الذى شمل الإنتاج والادخار والاستهلاك والتوزيع - واجه أزمة المجاعة ، والسنوات العجاف ، التى حلّت بمصر ، وما حولها ، كما قصّ ذلك علينا القرآن الكريم فى سورة يوسف .

*

* تهيئة الطاقات البَشرية وحُسن توزيعها :

٢ - يجب على الأُمَّة أن تطوِّر نظامها التعليمى والتدريبى ، بحيث يهيئ لها الطاقات والكفايات البَشرية المتنوعة فى كل مجال تحتاج إليه ، وأن تُطوِّر نظامها الإدارى والمالى بحيث تنمى هذه الطاقات ، وتحسن تجنيدها ، وتوزيعها على شتَّى الاختصاصات بالعدل ، اهتداءً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ

الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ، فَلَوْلا نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١) ، وملء الثغرات التى تهمل - عادة أو غفلة - بالحوافز أو بالإلزام .

ووضع كل إنسان فى المكان المناسب له ، والحذر من إسناد الأمر لغير أهله : « إذا وُسِدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » (٢) .

ومن ثَمَّ كان حرص الإسلام على الثروة البَشرية ، والمحافظة عليها والعمل على تنميتها : جسمياً وعقلياً وروحياً وعلمياً ومهنياً ، وكانت الموازنة بين الدين والدنيا دون طغيان أو إخسار .

*

* حُسن استغلال الموارد المتاحة :

٣ - حُسن استغلال الموارد الاقتصادية والإمكانات المادية للأُمَّة ، بحيث لا تهدر شيئاً منه ، والمحافظة عليها باعتبارها أمانة يجب أن تُرعى ، ونعمة يجب أن يُشكر الله تعالى باستخدامها أحسن استخدام ، وأمثله .

ومن أجل هذا لفت القرآن أفكارنا إلى ما سخَّر الله لنا مما فى السموات والأرض ، وما فى البر والبحر .

وحمل بشدة على الذين يهدرون أجزاء من الثروة الحيوانية ، اتباعاً لأقاويل شركية خرافية ، فحرَّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله ، وناقشت ذلك سورة « الأنعام » مناقشة مطوَّلة مفصّلة فى جملة آيات .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ، كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ

---

(١) التوبة : ١٢٢ (٢) رواه البخارى فى كتاب الإيمان عن أبى هريرة .

ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

وكذلك سورة المائدة : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وقد رأينا كيف نبّه الرسول الكريم على وجوب الانتفاع بأى مادة خام (٣) ، وعدم إهدارها وتضييعها ، وإن استهان الناس بها ، مثل جلد الشاة الميتة .

بل إن النبى ﷺ ليحذر من التفريط حتى فى اللُّقمة تسقط من آكلها ، فينبغى أن يميط عنها الأذى ويأكلها ، ولا يدعها للشيطان . كما ينبغى له أن يلعق الصحفة أو يُلعقها ، ولا يدع الفضلات تُلقَى فى سلال القمامات ، سرفاً واستهتاراً .

ومما يجدر التنبيه عليه هنا : توجيه النبى ﷺ إلى زراعة الأرض لمن قدر أن يزرعها بنفسه ، أو بإعارتها لمسلم آخر يستطيع أن يزرعها .

وفى هذا جاء الحديث : « مَن كانت له أرض فليزرعها ، فإن لم يستطع أن يزرعها ، وعجز عنها ، فليمنحها أخاه المسلم » (٤) .

وإذا تيَّسر له المزارعة عليها بجزء شائع من غلَّتها فهو حسن أيضاً ، من باب التعاون بين مالك الأرض والفلاح المزارع ، أشبه بالمضاربة التى يتعاون فيها رأس المال والجهد ، كما يمكن إجارتها بمال معلوم ، كما هو رأى جماعة من الفقهاء ، وإن كنا لا نرجحه (٥) .

وقد زارع النبى ﷺ اليهود على أرض خيبر بالشطر مما يخرج منها .

وقال عمر بن عبد العزيز : « زارِعوا على الأرض بنصفها ، بثلثها ، بربعها . . . إلى عُشرها ، ولا تدعوا الأرض خراباً » .

---

(١) الأنعام : ١٤٢ - ١٤٤

(٢) المائدة : ١٠٣ (٣) انظر : ما كتبناه من قبل عن « المحافظة على الموارد » .

(٤) متفق عليه عن جابر وعن أبى هريرة ، صحيح الجامع الصغير (٦٥١٤) .

(٥) انظر : كتابنا « الحلال والحرام » ص ٢٧١ - ٢٧٦ نشر مكتبة وهبة .

كما رأينا كيف أنكر الرسول ﷺ بشدة على مَن قتل عصفوراً عبثاً ، وأخبر أنه سيشكو إلى الله قاتله يوم القيامة قائلاً : يا ربِّ ؛ قتلنى عبثاً ولم يقتلنى منفعة ! (١) .

ويلحق بالعصفور كل المباحات التى يُحصل عليها بالصيد ونحوه ، من ثروة برية أو بحرية ، فلا يجوز العبث بها ، ولا المساس بها بغير ما فيه منفعة الناس . ومثل ذلك كل الثروات الحيوانية والزراعية والمعدنية .

كما أنكر النبى عليه الصلاة والسلام - فى حديث آخر - استخدام الشىء فى غير ما خُلِق له بالفطرة أو بالعادة .

فقد جاء فى الصحيح : أن رجلاً ركب بقرة فتكلمت ، فقالت : ما لهذا خُلِقتُ ! إنما خُلِقت للحرث !

فهل تكلَّمت بلسان الحال ، وقد يكون أبلغ من لسان المقال ؟ أو هو كلام حقيقى من باب الخوارق ، وهو الظاهر من سياق الحديث ، وما ذلك على الله بعزيز .

المهم هنا ما يشير إليه الحديث من الحثِّ على استخدام الشىء فيما خُلِق له .

ويحسن بنا هنا أن نشير إلى قوله تعالى فى الوصية بمال اليتيم : ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** ﴾ (٢) .

وقد تكرر ذلك فى القرآن بهذه الصيغة نفسها ، فلم يكتف القرآن منا أن نقرب مال اليتيم بطريقة حسنة وحسب ، بل بالتى هى أحسن ، فإذا كانت هناك طريقتان لتنمية مال اليتيم والمحافظة عليه : إحداهما حسنة جيدة ، والأخرى أحسن منها وأجود ، كان الواجب علينا أن نستخدم التى هى أحسن

---

(١) رواه أحمد والنسائى ، وانظر تعليقنا عليه فى « المنتقى من الترغيب والترهيب » حديث رقم (٥٧٧) طبع دار الوفاء .

(٢) الإسراء : ٣٤

وأجود ، بل حرام علينا ألا نستخدم إلا التى هى أحسن ، كما هو مفهوم التعبير بالنهى وأسلوب القصر .

ومال الأُمَّة فى مجموعه أشبه بمال اليتيم ، والدولة التى ترعاه ومؤسساتها المسؤولة عنه أشبه بولى اليتيم ، كما شبَّه عمر نفسه مع بيت المال بولى اليتيم : إن استغنى استعفّ ، وإن افتقر أكل بالمعروف . ولهذا يجب أن نحافظ على أموال الأُمَّة وثرواتها ، ونعمل على تنميتها بالتى هى أحسن .

*

* تنويع الإنتاج وفق حاجة الأُمَّة :

٤ - ومن القِيَم المطلوبة فى الإنتاج فى ظل اقتصاد إسلامى : أن يتنوع الإنتاج ويتعدد ، وفق حاجات الأُمَّة المتنوعة ، ومطالبها المتعددة : علمية وعملية ، زراعية وصناعية ، فنية ومهنية ، مدنية وعسكرية .

فإذا كان « المنتجون » فى الاقتصاد الرأسمالى الغربى ، يبحثون عما يحقق لهم الربح أولاً ، بل أعلى عائد منه ما أمكن ذلك ، بغض النظر عن حاجة الأُمَّة أو عدم حاجتها . فإن « المنتج المسلم » يهمه - قبل كل شىء - ما ينفع الناس ، وما يحتاج إليه الناس ، لأنه يعمل لآخرته كما يعمل لدنياه ، ويسعى لإرضاء مولاه ، قبل أن يُرضى هواه .

وأولى الناس برضوان الله ومثوبته : مَن وجد ثغرة فى اقتصاد الأُمَّة قد أُغفلت ، فعمل على سدِّها .

فمن المقرر لدى فقهاء المسلمين : أن كل علم أو عمل ، أو حرفة أو مهارة ، يحتاج إليها جماعة المسلمين ، ففرض كفاية عليهم أن يتقنوها ويقوموا بها ، بحيث تكتفى الأُمَّة اكتفاءً ذاتياً ، تستغنى به عن غيرها ، ولا تكون عالة على سواها ، ممن لا يدين بدينها ، وقد لا يضمر لها وداً ولا خيراً .

وإذا لم يتنبه الأفراد بفطرتهم ووعيهم الذاتى إلى مثل هذه الفروض

الكفائية ، فواجب أُولى الأمر أن يخططوا لتنويع الإنتاج وتوجيهه ، حتى يُلَبِّى كل حاجات المجتمع المسلم ، ومطالبه المادية والمعنوية .

ولقد نبَّه القرآن الكريم على ضرورة التخصص ، وذلك حين نفر الناس للجهاد متحمسين ، وغفلوا عن طلب العلم والتفقه فى الدين . فقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ، فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ (١) .

وكما لا يجوز ترك التفقه فى الدين انشغالاً بالجهاد ، كذلك لا يجوز ترك العلوم والصناعات الأخرى الضرورية لحياة الناس انشغالاً بالفقه ، وهذا ما عاب به الإمام الغزالى أهل عصره ، حيث يوجد فى البلد الواحد عشرات المشتغلين بالفقه ، ولا يوجد فيه إلا طبيب من أهل الذِّمَّة !

ولقد أنزل الله فى كتابه سورة سميت « سورة الحديد » ، ذكر الله فيها آية دلَّت على أهمية هذا المعدن فى حياة الناس الدينية والدنيوية ، وأشارت إلى منافعه المدنية والحربية ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ (٢) ، ففى قوله : « بأس شديد » إشارة إلى أهمية الحديد للصناعة الحربية ، وفى قوله : « منافع للناس » إشارة إلى أهميته فى الصناعة المدنية ، وإن كان الذى يؤسف له : أن أُمَّة سورة الحديد لم تتقن صناعة الحديد ، لا فى المجال الحربى ، ولا فى المجال المدنى .

ومن واجب المسلمين أن ينفذوا أمر الله تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ (٣) .

وخيل عصرنا تتمثل فى الدبابات والمدرعات وغيرها ، ولا يمكن تنفيذ الآية الكريمة وما فى معناها من النصوص إلا بإنتاج صناعى متقدم ، وهو يحتاج

---

(١) التوبة : ١٢٢ (٢) الحديد : ٢٥ (٣) الأنفال : ٦٠

إلى علوم تهيئ له ، وتكنولوچيا تخدمه ، فلا بد من توافرها جميعاً ، وتيسير أسبابها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ولقد حثَّت الأحاديث النبوية الشريفة على الزراعة ، ورغَّبت فيها بأبلغ أساليب الترغيب .

وحثَّت كذلك على الصناعة ، ورغَّبت فيها بأبلغ أساليب الترغيب .

وحثَّت على التجارة ، حثها على الزراعة والصناعة .

وما ذلك إلا ليتكامل الإنتاج فى كل هذه النواحى ، ولا تُترك ناحية يظهر فيها ضعف الأُمَّة ، وافتقارها إلى غيرها ، فيُتحكم فيها من خلالها ويُمسَك بتلابيبها .

وانظر إلى هذا الحديث الذى رواه ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « إذا تبايعتم بالعِينة [1] ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه ، حتى ترجعوا إلى دينكم » [2] .

والعِينة : معاملة صورتها بيع ، وحقيقتها ربا ، وأخذ أذناب البقر : رمز إلى الاستكانة ، وإخلاد كل امرئ إلى شؤونه الخاصة ، وأخذ كل واحد بذَنب بقرته ، والاكتفاء بالزراعة ، وإهمال الصناعة ، وخصوصاً الحربية ، وهذا نقص فى الكفاية الإنتاجية للأُمَّة يُعرِّضها للخطر ، ولا سيما إذا أضيف إلى ذلك ترك الجهاد فى سبيل الله .

---

(١) العِينة : أن يبيع السلعة بثمن معلوم لأجل ، ثم يشتريها منه فى الحال بأقل منه ، تحايلاً على أكل الربا ، فهو بيع صورى ، السلعة فيه غير مقصودة ، وإنما هى وسيلة للتحليل فقط .

(٢) الحديث رواه أبو داود وقوَّاه ابن القيم فى تهذيب السنن ، ورمز السيوطى لحسنه فى الجامع الصغير وتعقبه المناوى ، وله عند أحمد إسناد أمثل من أبى داود ، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٤٢٣) ، وقد تكلَّمنا عليه فى كتابنا « بيع المرابحة للآمر بالشراء » .

ولقد رأينا المسلمين فى عصور الالتزام والازدهار - فى مجال الإنتاج - يحرصون على الأعمال النافعة ، ويمتنعون عن تربية الخنازير ، وصناعة الخمور ، وصناعة الأصنام والتماثيل ، وغير ذلك من الأشياء التى حرَّمها الإسلام ، على الرغم مما قد يكون وراءها من مكاسب مغرية .

ورأيناهم يتقرَّبون إلى الله تعالى بالزراعة والغرس ، والصناعات والحرف المختلفة ، حتى إن كثيراً من كبار العلماء فى شتَّى التخصصات والعلوم الإسلامية ، ليُنسبون إلى حرفهم وصناعاتهم ، ولهذا عرف تاريخ الطبقات والتراجم عندنا أمثال : الخصَّاف ، والجصَّاص ، والقفَّال ، والخرَّاز ، والبزَّار ، والخيَّاط ، والصبَّاغ ، والبزَّاز ، والزيَّات . . . وغيرهم .

وكان العلماء الربَّانيون يوصون مريديهم ومَن استنصحهم أن يشتغل أحدهم بصناعة مهمة ، ليكون فى قيامه بها كافياً عن المسلمين أمراً مهماً فى الدين [1] .

ومن بدائع ما ذكروا : اختلافهم : أيُّ الحِرَف والأعمال أفضل وأكثر تحصيلاً للثواب من الله تعالى : الزراعة ، أم الصناعة ، أم التجارة ؟

ففى فضل كل منها وردت نصوص وأحاديث وآثار .

فبعضهم قال : أفضلها الزرع والغرس ، لما ورد فى فضلهما من أحاديث ، حتى إن الزارع والغارس ليؤجر على ما يؤكل من ثمره وجناه - ولو لم يقصده - حتى ما يأكله الطير والحيوان ، ويظل أجره ممتداً ما انتفع به منتفع من خلق الله - من إنسان أو حيوان - إلى يوم القيامة .

وبعضهم قال : بل الصناعة أفضل ، لما ورد من حديث : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإنَّ نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » [2] .

---

(١) انظر : الإحياء : ٢/ ٨٣

(٢) رواه البخارى عن المقدام .

وحديث : « خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح » (١) .

وبعضهم قال : بل التجارة أفضل ، لما ورد أن : « التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصِّدِّيقين والشهداء » (٢) .

ولأن الخيرة من كبار الصحابة رضى الله عنهم كانوا تجاراً ، مثل أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرهم .

والذى رجحه المحققون : هو التفصيل فى الجواب ، دون التعميم والإطلاق . ومن هنا قالوا :

إن الأفضل منها ما اشتدت حاجة الناس إليه ، وانشغل الناس عنه ، فإذا انصرف الناس عن الزراعة إلى الصناعة أو التجارة ، لكثرة مكاسبهم بها ، مع مسيس حاجتهم إلى الأقوات والثمار ، كانت الزراعة أفضل ، وأعظم مثوبة عند الله .

وإذا انصرف الناس عن الصناعات والحِرَف ، وأصبحوا فيها عالة على غيرهم من غير المسلمين ، كان العمل فى هذا الميدان أولى وأعظم أجراً .

وإذا احتاج الناس إلى التجارة ، لانقطاع الطرق ، أو لوجود مخاطر شديدة ، أو لقلَّة المكاسب بها ، أو لغلبة بعض الأفراد أو الفئات على الأسواق ، وتلاعبهم بالأسعار ، واحتكارهم للسلع والأقوات ، وحاجة الناس إلى تجار صالحين غير جشعين ولا مستغلين ، تكون التجارة هنا أفضل ، وأعظم أجراً .

ومن اللازم هنا - لكى تكتفى الأُمَّة اكتفاءً ذاتياً - أن يتم التنسيق بين جوانب الإنتاج المختلفة ، فلا يطغى فرع على فرع ، ولا يُهمل جانب لحساب جانب آخر ، فلا يحسن أن تُوجَّه العناية إلى الزراعة مثلاً ، فى حين يُهمل

---

(١) رواه أحمد عن أبى هريرة (٨٣٩٣) و(٨٦٧٦) ، وقال المنذرى والهيثمى : رواته ثقات ، وصححه الشيخ أحمد شاكر . انظر المنتقى ص ٤٠٩

(٢) رواه الترمذى وحسَّنه ، والحاكم وصحَّحه .

أمر الصناعة ، أو العكس ، أو يُوجَّه التعليم لتخريج أطباء ، ويُنسى المهندسون ، أو العكس ، أو يُهتم بالهندسة المدنية أو الميكانيكية ، وتُغفل الهندسة الألكترونية أو النووية . . أو يُعنى بالجوانب النظرية ، والكفايات العقلية العالية ، وتُغفل الجوانب العملية ، والمهارات اليدوية ، والخبرات المتوسطة والدنيا . . . وهكذا .

لهذا أكدنا ضرورة التخطيط القائم على الدراسة والإحصاء لمعرفة حاجات المجتمع من كل تخصص للعمل على تلبيتها ، والتعرف على أوجه النقص لاستكمالها .

ويجب فى ميدان الإنتاج تقديم الأهم على المهم ، والمهم على غير المهم . أو - على حد تعبير الأصوليين - تقديم « الضروريات » التى لا تقوم الحياة إلا بها ، على « الحاجيات » التى تكون الحياة بدونها شاقة وعسيرة ، وتقديم « الحاجيات » على « التحسينات » ، أو ما نسميه بلغة العصر « الكماليات » .

فلا يجوز لمجتمع أن يزرع الفواكه الغالية الثمن ، التى لا تهم غير الأثرياء والمترفين ، فى حين يهمل زراعة القمح أو الذرة أو الأرز ، التى هى القوت اليومى للجماهير .

ولا يجوز إقامة مساكن اصطياف للأثرياء على الشراطئ ، وترك بناء المساكن الضرورية للفقراء .

ولا يجوز الاهتمام بصناعة العطور وأدوات الزينة و« المكياج » فى حين لا تتجه الهمة إلى صناعة أدوات الزراعة ، أو الرى ، أو السيارات ، أو صناعة الدواء الضرورى للصحة ، أو السلاح الضرورى للدفاع عن الحوزة .

أما إنتاج ما يضر بالفرد أو بالمجتمع ، مادياً أو معنوياً ، جسمياً أو روحياً ، فهو مرفوض حتماً ، ومحظور شرعاً ، مثل زراعة الكروم لتُعصر خمراً ، أو زراعة الخشخاش أو الحشيش وغيره من مصادر المخدرات ، أو زراعة التبغ (أو تصنيعه) ، أو القات [1] ، ونحوها ، مما فيه استخدام نِعَم الله تعالى فى معصية الله أو ضرر خلقه .

*

(١) مما يؤسف له أشد الأسف : أن نحو ٣٠٪ (ثلاثين فى المائة) من أرض اليمن=

* تشغيل الثروة النقدية :

٥ - ومن الواجب على المجتمع المسلم : أن يخرج بالنقود من قمقم « الكنز » إلى باحة الحركة ، والعمل ، فإن النقود لم تُخلق لتُحبس وتُكتنز ، إنما خُلقت لتتداول ، وتنتقل من يد إلى يد : ثمناً لبيع ، أو أجراً لعمل ، أو عين يُنتفع بها ، أو رأس مال لشركة أو مضاربة ، فهى وسيلة لأغراض شتَّى ، وليست هى غرضاً فى ذاتها ، ولا يجوز أن يحولها الناس إلى وثن يعبدونه ويطوفون به ، فهذا سبب التعاسة والشقاء : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم » (١) .

ولقد تحدَّث الإمام الغزالى فى « الإحياء » عن وظيفة النقود فى الحياة الاقتصادية ، حديثاً سبق به فلاسفة الاقتصاد فى العصر الحديث . فقد ذكر أن الله تعالى خلق الدراهم والدنانير (يعنى النقود) لتتداولهما الأيدى ، وليكونا حاكمين متوسطين بين الأموال بالعدل ، ولحكمة أخرى ، وهى : التوسل بهما إلى سائر الأشياء ، لأنهما عزيزان فى أنفسهما ، ولا غرض فى أعيانهما ، ونسبتهما إلى سائر الأشياء واحدة ، فمَن مَلَكها فكأنه مَلَك كل شىء ، لا كمن مَلَك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب . . . فكل مَن عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم ، بل يخالف الغرض المقصود بالحكم (أى بين الأموال) فقد كفر نعمة الله فيهما ، فإذن مَن كنزهما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين فى سجن يمتنع عليه الحكم بسببه . . . فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلَهية ، المكتوبة على صفحات الموجودات ، بكلام سمعوه حتى وصل إليهم المعنى بواسطة الحرف والصوت ،

= تُزرع بالقات ، الذى إن لم يضر فلا نفع له ، إلا إضاعة الأوقات ، وإشاعة الكسل ، وكان الأولى أن تزرع بالحبوب والخضروات والفواكه ونحوها مما ينفع الناس . انظر : فتوانا فى القات فى الجزء الثانى من « فتاوى معاصرة » .

(١) من حديث رواه البخارى عن أبى هريرة : ٢١٦/١١ ، البخارى مع الفتح .

فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... ﴾ (١) .

وقد فرض الله الزكاة على النقود فى كل حَوْل ، نمَّاها مالكها أم لم ينمِّها ، لتكون حافزاً قوياً يدفعه إلى تنميتها وتحريكها ، حتى لا تأكلها الزكاة بمرور الأعوام (٢) .

وهذا ما أمر به الحديث الأوصياء على أموال اليتامى أمراً صريحاً : أن يبتغوا فى أموال اليتامى ويتجروا فيها حتى لا تأكلها الزكاة .

وقد ذهب بعض الصحابة إلى أن المال الذى أديت زكاته فليس بكنز ، وإن كان مدفوناً تحت الأرض .

جاء هذا عن عمر وابنه عبد الله رضى الله عنهما .

وهذا لم يصح مرفوعاً عن النبى ﷺ ، وهو خلاف ظاهر اللغة ، كما تفيده كلمة « كنز » فإن معناها الأصلى الدفن والخبء .

* * *

(١) انظر : الإحياء ، كتاب « الشكر من ربع المنجيات ص ٢٢١٩ - ٢٢٢١ -طبع الشعب ، القاهرة - والآية من سورة التوبة : ٣٤

(٢) انظر فقه الزكاة : ١/ ٢٥٣

obeikandl.com